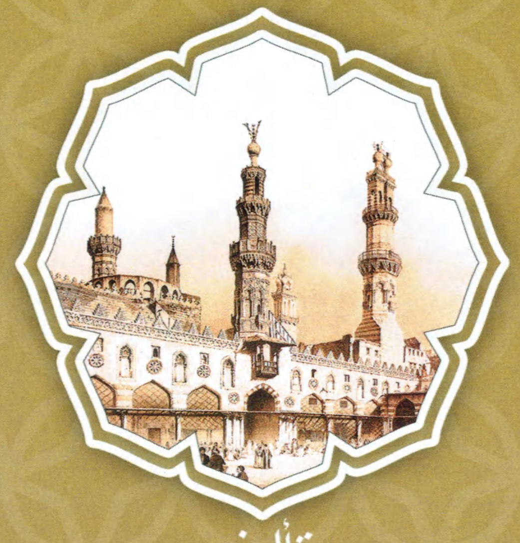


المسكوت عنه في كتاب الكامل للمبرد



تأليف

أ.د/ محمد أبو موسى

عضو هيئة كبار العلماء

إعداد

الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء

إشراف

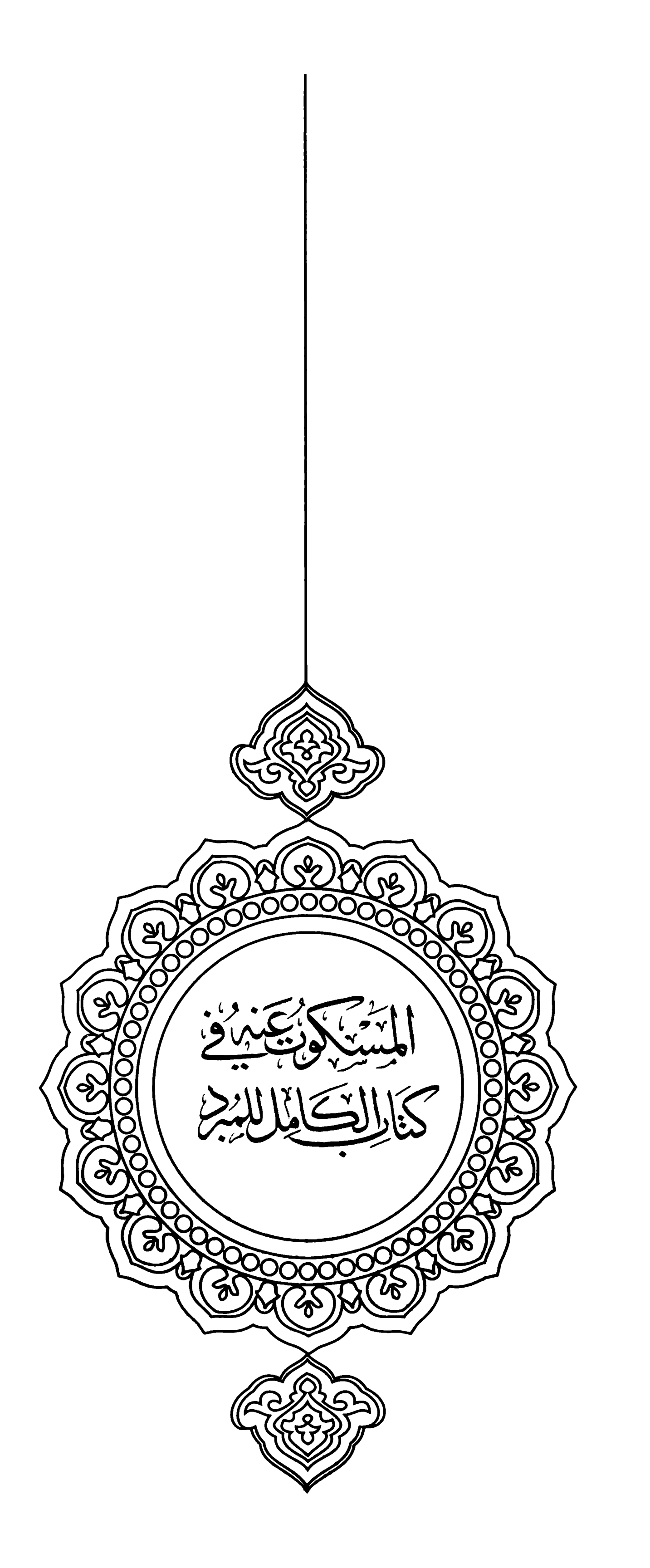
أ.د/ عباس شومان

الأمين العام لهيئة كبار العلماء

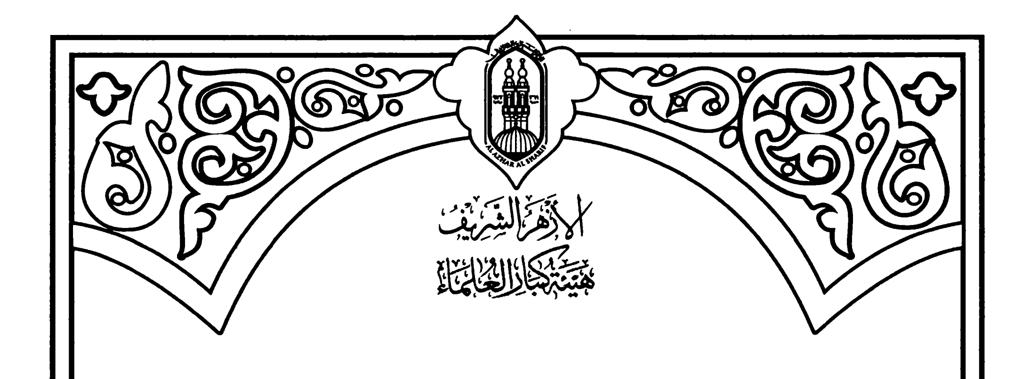
الطبعة الأولى

لهيئة كبار العلماء

١٤٤٦هـ / ٢٠٢٥م


المسكوت عنه في
كتاب الكامل للمبرد


بسم الله الرحمن الرحيم

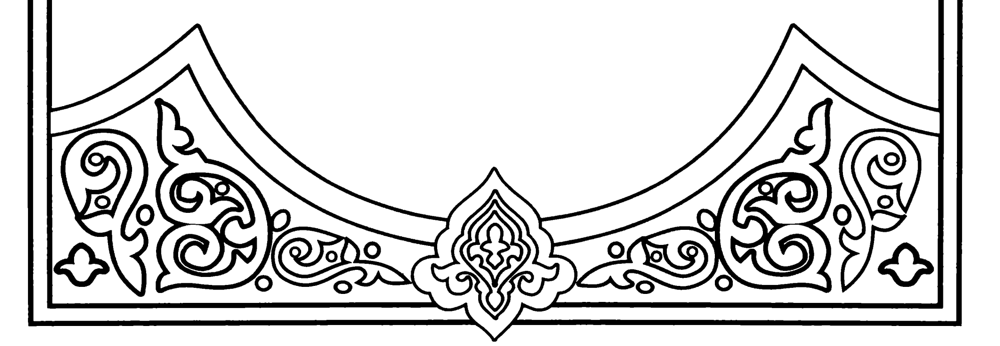


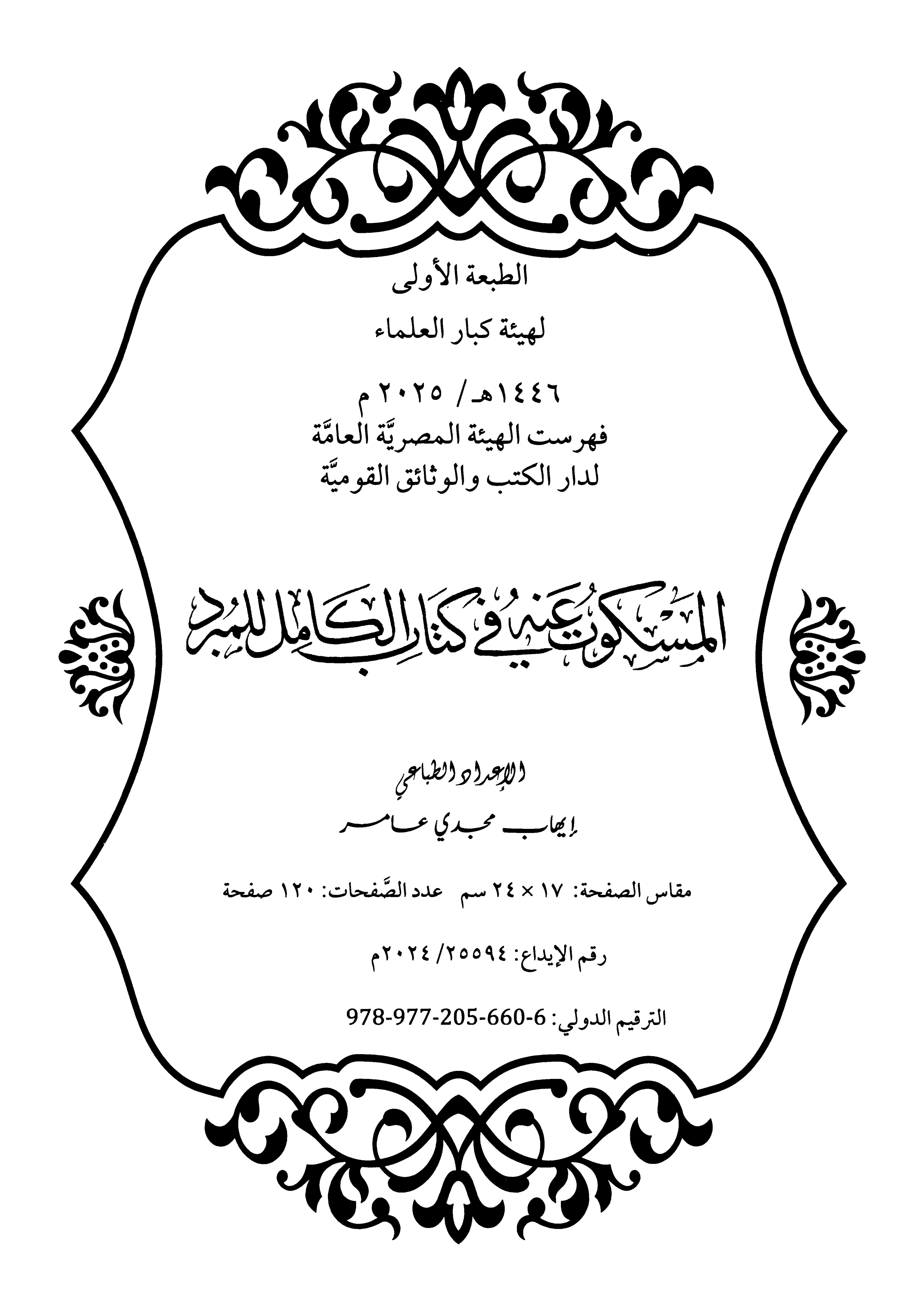
المسكوت عنه في كتاب الكامل للمبرد

تأليف

أ.د/ محمد أبو موسى

عضو هيئة كبار العلماء





الطبعة الأولى

لهيئة كبار العلماء

١٤٤٦هـ/ ٢٠٢٥م

فهرست الهيئة المصريَّة العامَّة

لدار الكتب والوثائق القوميَّة

المسكوت عنه في كتاب الكامل للمبرد

الإعداد الطباعي

إيهاب مجدي عامر

مقاس الصفحة: ١٧ × ٢٤ سم عدد الصَّفحات: ١٢٠ صفحة

رقم الإيداع: ٢٥٥٩٤/ ٢٠٢٤م

الترقيم الدولي: 978-977-205-660-6

تقديم الأمانة العامَّة لهيئة كبار العلماء

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على النبي الأمي الأكرم، وعلى آله وصحبه نجوم الأمم، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الفوز والندم.

وبعدُ...

فإن البلاغة بحر خِضَم، زاخر بالنفيس من العلوم، متماوج بشتى الفنون، فلا يبحر فيه إلا من استوى على سوقه؛ ليصل آمنًا إلى جُودِه، وهو صِنْوُ علم النحو الذي يقيم الألسنة، ويفتح الباب لكل ذي عقل أن يتدبر فيما يقال وما لا يقال، ويعرف تراكيب الكلام العربي الأصيل، ويميز ما هو غث مما هو سمين.

وكتاب (الكامل) لأبي العباس المبرد أحد أركان البلاغة، ودواوينها الأربعة، كما يقول ابن خلدون: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، وهي: أدب الكُتَّاب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها، وفروع عنها».

والوقوف على خبايا الكامل وأسراره من أجلِّ الأعمال العلمية؛ فتدارس المنطوق به لا يستوي مع بيان المسكوت عنه، ومستخرج

اللآلـئ ليـس كبائعهـا؛ ذلـك أن المنطـوق بـه تتناقلـه الألسـن، وتسـتطيعه العقـول علـى تفـاوت اسـتيعابها، وتبايـن أقدارهـا، لكـن اسـتنطاق المعـاني، واسـتجلاء الغوامـض، لا يسـتطيعه أي عقـل، ولا يصـل إلـى خباياهـا إلا المخلصـون؛ لتنجلـي الحقيقـة للبصائـر، بمـا حـوت الأشـباه والنظائـر.

ومستكشـف هـذه الأسـرار، ومسـتنطق هـذه المعـاني في هـذا الكتـاب، واحـد مـن كبـار علمـاء الأزهـر الشـريف، المشـهود لـه في جميـع ربـوع العلـم بالأصالـة والتمكُّـن، والرسـوخ في العلـم الماتـع؛ علـم البلاغـة، فضيلـة الأسـتاذ الدكتور/ محمـد محمـد أبـو موسـى، أسـتاذ البلاغـة، وعضـو هيئـة كبـار العلمـاء بالأزهـر الشـريف، ولعـل أبـرز مـا يميـز عطـاءه الممتـد عنايتُـه الفائقـة ببنـاء العقـول، فكـم قـال: «إن الحديـث في العلـم شـيء، والحديـث عـن كيفيـة اسـتخراج العلـم شـيء آخـر»، وهـذا مـا نجـده متمثـلًا في هـذا الكتـاب؛ حيـث إن الدراسـات في كتـاب (الكامـل) للمـبرد كثيـرة، لكـن عُنِـيَ المؤلـف بجـلاء الأفـكار فيـه، وكشـف الغائـب بعلـم الحاضـر.

وهيئـة كبـار العلمـاء إذ تقـوم بإخـراج هـذا الكتـاب، لترجـو أن تبنـي بـه عقـولًا تخلـص في طلـب العلـم، وتوغـل في غوامضـه، وتبتعـد عـن المكـرور فيـه؛ ليتصـل حبـل العلـم المتيـن، وليـزداد بنـاؤه قـوةً، فبـدون العقـول الواعيـة، والهمـم العاليـة، لا نصـل إلـى غايـة، وليـس أشـرف مـن علـوم اللغـة التـي بهـا نسـتجلي معـاني القـرآن الكريـم، والسـنة النبويـة المشـرفة.

والله يهدي إلى سواء السبيل

أمانة هيئة كبار العلماء

ترجمة فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمَّد محمَّد أبو موسى(١)

هو اللُّغويُّ الرَّصين، والبلاغيُّ المَكِين، والأزهريُّ الأصيل، تلميذُ الشُّيوخ الرَّاسخين الصَّادقين، أستاذُ العُلماءِ العامِلِين، الباذِلُ كدَّه ووُكْدَه - ومن قبلُ حياتَه وعُمُره- في الذَّود عن ثقافة الأمَّة والدِّفاعِ عن أصالتها، والمَانِحُ ثمرةَ فؤاده وزُبْدةَ تجربته لطُلَّابه، والزَّارعُ في عقول الناشئة على مرِّ الأجيال حُبَّ العلم وتقديرَ جُهْد أهله، والمُرشِدُ لهم إلى سبيل القراءة الحقَّة المُثْمِرَة.. إنَّه فضيلةُ الأستاذ الدكتور/ محمد محمد أبو موسى، أستاذُ البلاغة والنقد في كلية اللُّغة العربيَّة بالقاهرة، جامعة الأزهر، عضوُ هيئةِ كبار العلماء بالأزهر الشَّريف، حفظه الله تعالى.

وُلِدَ فضيلةُ الأستاذ الدكتور/ محمَّد محمَّد حسنين أبو موسى في ٢٠ من ربيعٍ الآخِر عامَ ١٣٥٦هـ، الموافق ٣٠ يونيو عام ١٩٣٧م، في قرية الزَّوامل التابعة لمركز دُسُوق بمحافظة كفر الشيخ بجمهورية مصرَ العربيَّة.

حَفِظَ القرآنَ الكريمَ في سِنٍّ مُبكِّرة، ثم التحقَ بالأزهر الشَّريف وهو ابن اثنتَيْ عَشْرةَ سنةً طالبًا بمعهد دُسُوق الابتدائيِّ الأزهري، الذي شغل منصب المشيخة به فضيلةُ الشيخِ الكبير/ محمَّد الصَّادق عُرْجُون، ومنه انتقل إلى المعهدِ الثَّانويِّ بدُسُوق؛ لأن نظام التعليم حينئذٍ كان مقصورًا

(١) هذه التَّرجمةُ مُختصرَةٌ من تَرجمةِ الشَّيخ التي تُنشَرُ -بمشيئة الله تعالى- في الكِتابِ الذي تُعِدُّه الأمانةُ العامَّةُ لهيئة كبار العلماءِ بالأزهر الشَّريف عن أعلام الهيئةِ المُعاصِرِين.

على المرحلتين الابتدائيَّة والثانويَّة، وفي خِلالِ هذه السَّنوات تَشبَّعتْ رُوحُ الشَّيخِ بالكفاحِ الوطنيِّ؛ فكان يَخرُج مع زملائه في المعهد في مظاهراتٍ مُناهضةٍ للاحتلالِ الإنجليزي.

انتقل فضيلةُ الشَّيخ/ محمَّد أبو موسى إلى القاهرة ليلتحقَ بكليَّة اللُّغة العربيَّة، وتتلمذَ فيها على نُخبَةٍ من كبارِ شُيوخِ الأزهر وعُلماءِ العربيَّة، الذين كان لهم الأثرُ البالغُ في تكوين شخصيتِه، وتربيةِ عقلِه العِلميِّ، وترسيخِ حُبِّه للعِلْم؛ منهم: الشَّيخ/ عَبدُ السَّمِيع شَبَانَة، والدكتور/ محمَّد رِفعت فتح الله، والشَّيخ/ عبد الغني إسماعيل، والدكتور/ محمد البَهِيّ، والدكتور عوض الله حِجَازِي، والشَّيخ/ سيد نَعيم، والدكتور/ حامد عبد القادر، والشَّيخ/ أحمد الشَّرَباصي، والشَّيخ محمد عُتَيْبة، والشَّيخ/ عبد العظيم الرُّوبِي، والشَّيخ/ محمد عبد الخالق عُضَيْمَة، والشَّيخ المُحقِّق/ السَّيد أحمد صَقْر، والشَّيخ/ محمد علي النَّجَّار- رحمهم الله جميعًا.

بعد تخرُّجه التحقَ فضيلةُ الشَّيخ/ محمَّد أبو موسى بالدِّراسات العليا التي اجتاز امتحاناتِهَا التحريريةَ، كما اجتاز الامتحانَ الشَّفوِيَّ الذي تَشَكَّلَت لجنتُه من عُمَدَاءِ الكُلِّيَّاتِ الأزهريةِ الأصيلةِ الثَّلَاث، وهم: الدكتور/ علي عبد القادر، عميدُ كلية الشَّريعة، والدكتور/ عبد الحليم محمود، عميدُ كلية أصول الدِّين، شيخُ الأزهر الشَّريف فيما بعد، والشَّيخ محمد مُحيِي الدِّين عبد الحميد، عميدُ كلية اللغة العربية، مُضافًا إليهم رئيسُ قسم البلاغة، وأقدمُ أستاذ في القسم.

وعقِبَ إنهائه سَنتَي الدِّراسات العُليا كَتبَ الشَّيخُ بحثًا تكميليًّا بعنوان:

«بلاغةُ المِفتَاحِ: دراسةٌ وتقويمٌ»، حاز به درجة التخصُّص (الماجستير) في البلاغة والنَّقد من كلية اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٦٧م، وبعدها بأربع سنوات حصل على درجة العَالِمِيَّة (الدكتوراه) بمرتبة الشرف الأولى عن رسالته: «البحثُ البلاغي في تفسير الكشاف وأثرُه في الدراسات البلاغية»، بإشراف الأستاذ الدكتور/ كامل الخُولي، ومُناقشةِ الأستاذ الدكتور/ محمد جمعة حسنين، والأستاذ الدكتور/ بدوي طبانة.

بدأ فضيلةُ الشَّيخ/ محمَّد أبو موسى رِحلتَه الوظِيفيِّة مُعيدًا في قسم البلاغة والنَّقد بكلية اللُّغة العربيَّة بالقاهرة عام ١٩٦٤م، ثم مُدرِّسًا مُساعدًا، ومُدرِّسًا، وأستاذًا مساعدًا، وأستاذًا عام ١٩٨١م، كما شَغلَ رئاسةَ قسم البلاغة والنَّقد أعوامًا كثيرة، وعضويَّةَ اللجنة الدَّائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين بجامعة الأزهر.

دَرَّس الشيخُ في عددٍ من الجامعات، منها: جامعة بني غازي في ليبيا، وأُمّ دُرمَان في السُّودان، وأُمّ القرى في المملكة العربية السُّعودية.

وقد انضمَّ فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمَّد محمَّد أبو موسى إلى هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف عضوًا مؤسِّسًا لها في طَوْرِها الثاني، بموجب القرار الجمهوري رقم (٢٤) لسنة ٢٠١٢م، بشأن تشكيل هيئة كبار العلماء برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف.

أمَّا عن العطاءِ العِلميِّ لفضيلة الشَّيخ فقد أثرى - ولا يزال يُثري - المكتبةَ العربيَّةَ والبلاغيَّةَ بكثيرٍ من المُصنَّفات النَّافعة، بلغتْ حتى كتابة هذه السُّطور ثلاثين كتابًا، تُعادل ما يقارب سِتَّةَ عشرَ ألف صَفْحَةٍ، وجُلُّها طُبِعَ غيرَ مرةٍ تلبيةً لإقبال أهل العلم وطلابه من شتَّى بقاع الأرض، كما تُرْجِم بعضُها إلى اللغة التركيَّة.

ومن هذه المُصنَّفات: «البلاغةُ القرآنيَّةُ في تفسير الزَّمَخْشرِيِّ وأثرُها في الدِّراسات البلاغيَّة»، «من أسرار التعبير القرآني - دراسة تحليليَّة لسُورة الأحزاب»، «خصائص التراكيب»، «التَّصوير البياني»، «دلالات التراكيب»، «قراءة في الأدب القديم»، «دراسة في البلاغة والشِّعر»، «الإعجاز البلاغي»، «مَدخل إلى كتابَيْ عبد القاهر الجرجاني»، «مُراجعات في أصول الدَّرس البلاغي»، «تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجني»، «الشِّعر الجاهلي - دراسة في منازع الشُّعراء»، «آل حم: غافر - فصلت»، «آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان»، «آل حم: الجاثية - الأحقاف»، «الزُّمَر ومُحمَّد وعلاقتهما بآل حم»، «شرح أحاديث من صحيح البخاري»، «شرح أحاديث من صحيح مسلم»، «المسكوت عنه في التُّراث البلاغي»، «من مداخل التجديد»، «من التُّراثِ النَّقدِي»، «من حديث يوسف وموسى عليهما السلام في الذِّكر الحكيم»، «من أحاديث رسول الله ﷺ - دراسة في بلاغِه وبلاغتِه»، «من مناهجنا الغائبة في إعداد أجيالنا»، «المسكوتُ عنه في كتابَي الموازنة ولُباب الآداب»، وللشَّيخ كثيرٌ من المقالات المنشورة في المَجلَّات السيَّارة؛ منها: مجلة الأزهر، ومجلة الوعي الإسلامي.

وتطبيقًا لما نادى به الشيخُ في كتاباته من ضرورة تقريب كُتب العلماء الكرام الكبار إلى عقول الأجيال الجديدة، وتعريفهم سَبيلَ قراءة الكُتب التي أسَّسَت المعرفة، عقدَ الشيخ في عام ٢٠١٤م مجلسًا في الجامع الأزهر الشريف لشرح كتابَي الإمام عبد القاهر الجُرجاني، اللَّذَيْن هما عِمادُ البلاغة العربية وأصْلُها؛ ففرغ من شرح كتاب «أسرار البلاغة» عام ٢٠١٦م، وبدأ في عقبه شرحَ كتاب «دلائل الإعجاز»، ولا يزال يواصل شرحه حتى يومنا هذا.

ولم يقف العطاءُ العلميُّ للشيخ عند ذلك كلِّه، بل تعدَّاه إلى عطاءٍ أمدَّ مَيْدانًا وأكثرَ جَرَيانًا، وهو تخريجُه أجيالًا متكاثرةً من الأساتذة والعلماء الذين نَهَلُوا من معين علمه الصافي، وساروا على دربه في خدمة العلم وطلابه، وهم منتشرون في بقاع العالم العربي والإسلامي، لا يَحُدُّهم حدٌّ ولا يُحصِيهِم عَدٌّ.

وطوالَ مسيرتِه العلميَّة شارك فضيلة الشَّيخ/ محمد أبو موسى في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية في كثير من الدول، وأنتج عددًا كبيرًا من الرسائل العلمية؛ إشرافًا ومناقشةً، داخل مصرَ وخارِجَها، وكان كثيرٌ من عُنواناتِها ثَمرةَ فِكْرِه وعَمَلَ عقله؛ إذ كان لفضيلته جهودٌ عظيمةٌ في تجديد البحث البلاغي شكلًا ومضمونًا، شَهِدَ بها أساتذةُ البلاغة في العالم العربي والإسلامي.

وإبرازًا لهذا الأثر الجليل الذي أحدثَتْه كُتبُ الشيخ في البحث البلاغي وباحثيه، سُجِّل عددٌ من الرسائل العلمية في عدد من الجامعات العربية،

وكُتِبَ كثيرٌ من الكتب والبحوث العلمية؛ لتَدارُس مُنجَزه المعرفي، والتَّعمُّق في منهجه في دراسة البلاغة؛ تنظيرًا وتطبيقًا.

لقد شُغِلَ فضيلةُ الشيخ/ محمد أبو موسى -ولا يزال حفظه الله- بآمال الأمة وآلامها، وبذَل كَدَّه ووُكْدَه في حماية هُوِيَّتها والذَّوْد عنها، واستنهاضِ هِمَم أبنائها وإنذَارِهم سَرطانَ التَّغرِيب المُستَشرِي في جسد الثقافة العربية، الذي يعمل على مَسخِ تراثها والحَطِّ من أقدارِ علومها وعلمائها، وهو في ذلك مُستلْهِمٌ نهجَ أستاذه شيخ العربية في العصر الحديث؛ الشيخ الأستاذ/ محمود محمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ لطالما قَصَد بيتَه الآهِلَ بأهلِ العلم، وجلس إليه، ورجع إليه في كثير من القضايا، وشهد له بالصدق والفضل.

والشيخُ - في سبيل تحقيق ذلك - لا يُعلِّم طلابه العلم فحسب، بل يَزرعُ فيهم الأَنَفةَ والعِزَّة والتواضُع والكَدَّ، ويُنفِّرهم من العُجْب والذِّلَّة والدَّعَة والضَّعَة والتقوُّت على ما ينتجه الآخرون، وهو في كلِّ ذلك يُصدِّق فعلُه قولَه.

حَفِظَ الله فضيلةَ الأستاذ الدكتور/ محمَّد أبو موسى، وبارك في عُمرِه وعِلمِه، وجزاه عن العلم وطلابه خيرًا.

ترجمة أبي العباس المبرِّد
(٢١٠ - ٢٨٥هـ)[1]

هو إمامُ نُحاةِ البَصرةِ في عَصْرِه، حُجَّةُ الأدبِ والأخبار ونَقْدِ الشِّعر، مَن انتهى إليه عِلمُ العربيَّة بعد طبقةِ الجَرْمِيِّ والمازِنِيِّ.. إنَّه أبو العبَّاس مُحمَّدُ بنُ يَزيدَ بنِ عبدِ الأكبرِ الأزْدِيُّ، المعروفُ بـ«المُبرِّد».

وُلِدَ بالبَصْرة سنةَ ٢١٠ هـ، وفي سَببِ تَلقِيبِه بـ«المُبرّد» بفتح «رَاءٍ» وكَسْرِها مع التشديد في الحالتين ولأهل العلم خلاف في ذلك، ولكلٍّ بُرْهانُه.

ونَشأَ المُبرِّدُ بالبَصْرة، وانتقلَ منها إلى «سُرَّ مَنْ رَأَى» بطلبٍ من الخليفةِ المُتوكِّل فلَزِمَه وجالَسَه، ولمَّا قُتِلَ المتوكِّلُ رحلَ إلى بغداد، ولم يَلْبَثْ أنْ صَارتْ له حَلْقةٌ عظيمةٌ أوغَرَتْ عليه صَدْرَ أبي العبَّاس ثَعْلَب، فأغرى به تلامذِتَه؛ يسألونَه والمُبرِّدُ يُجِيبُ، حتَّى عَرَفوا قَدْرَه؛ فتَبِعَه بعضُهم مُنصرفِينَ عن شيخِهم «ثَعْلَب»، فنشأتْ خُصومَةٌ بين العالِمَيْن الكبيرَيْن.

كان المُبرِّدُ وَسِيمًا، ظريفَ الطَّبْع، خفيفَ الرُّوح، مَلِيحَ الأخبار، كثيرَ الأمالِي، حَسَنَ النَّوادر، وكان مِن العِلم، وغزارةِ الأدب، وكثرةِ الحِفْظ، وفصاحةِ اللِّسان، وكَرَمِ العَشِيرة، وجَوْدَة الخَطِّ، وقُرْبِ الإفهام - على ما ليس عليه أحدٌ ممَّن تقدَّمه أو تأخَّر عنه.

---

(١) هذه التَّرجمةُ مُختصَرَةٌ من التَّرجمةِ الوافية التي دبَّجها فضيلةُ الشَّيخ الجليل/ مُحمَّد عبد الخالق عُضَيْمَة، وأثبتَها في مُقدَّمةِ تحقيقِه كتابَ «المُقْتضَب» للمُبرِّد، ومِن ترجمةِ المُحقِّقِ الكبيرِ الدُّكتور مُحمَّد الدَّالي التي صدَّر بها تحقيقَه كتابَ «الكامِل».

تلقَّى مُحمَّدُ بنُ يَزيدَ العِلمَ على أشياخ عصره؛ فبدأ بقراءة كتاب سيبويه على الجَرْمِيِّ وخَتَمه على المازنِيِّ، كما روى الأدبَ عن التَّوَّزِيِّ وقرأ عليه نَوادِرَ أبي زيد، كما تلقَّى على أَبَان البَصْرِيّ، وأحمدَ بنِ طَيْفُور، والقاضي إسماعيل بن إسحاق، وروى عن الجاحظ.

وكان لكتابِ سيبويه كبيرُ الأثرِ في نَفْسِ المُبرِّد وثقافتِه؛ إذ اشتَهَرَ بإقرائه وهو غُلام، وكان يقولُ لمن يُريد أن يَقرأه عليه: «هل رَكِبْتَ البحرَ؟»؛ تعظيمًا له واستصعابًا لِمَا فيه.

وأثنى على المُبرِّد جَمْعٌ كبيرٌ من العلماء؛ منهم: السِّيرافِي، وكمال الدِّين الأنبارِي، وابن خَلِّكَان، ونِفْطَوَيْه، وابن جنِّي، وأبو منصورٍ الأزهريُّ.

وقد أخذ عنه كثيرٌ من الأدباءِ والعُلماء؛ أبرزُهم «الزَّجَّاج»، الذي انتهتْ إليه رِياسَةُ النَّحْو البَصْرِيِّ بعد المُبرِّد، ومنهم: عليُّ بنُ سُليمانَ الأخفشُ، وأبو بكرِ بنُ السَّرَّاج، وابن كَيْسَان، ونِفْطَوَيْه، وعبدُ الله بنُ المُعتزّ.

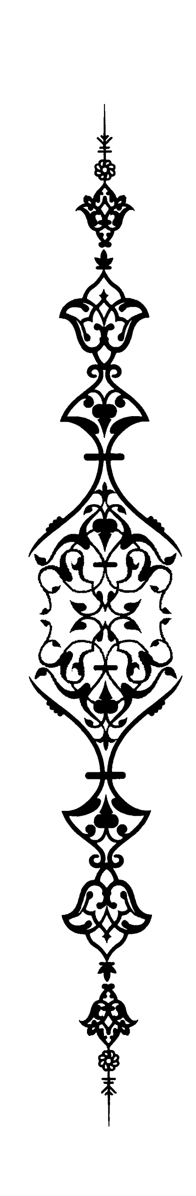
كان أبو العبَّاس شاعرًا، وذَكَرَه المَرْزُبَانِيُّ في «مُعجَم الشُّعراء»، كما كانتْ له صِلاتٌ بشُعراء عَصْره؛ فخَالَطَهم ورَوى عنهم شِعرَهم، ومِنْ أخصِّهم البُحتُرِيُّ الذي كان بينه وبين المُبرِّدِ صداقةٌ وَثيقةُ العُرَى وأُلْفَةٌ سقطتْ بها الكُلْفَة، حتَّى دَاعبَه ومَدحَه في شِعْره، كما نَظَم ابنُ الرُّومِيِّ قصيدةً طويلةً في مَدحِه.

أمَّا عن آثار المُبرِّد فيقول الشَّيخُ عُضَيْمَة: «إنَّ الكُتُبَ التي ألَّفها أبو العبَّاس تناولتْ فُروعَ العربيَّة، وإنَّه عَصَفَتْ حَوادِثُ الأيام بكثيرٍ منها، وقد بَقِي لنا أَنْفَسُها».

ومِن أهمِّ مُصنَّفاته: «الكامِل، والمُقتضَب، والفاضِل، وشَرْح لاميَّة العَرَب، والمُذكَّر والمؤنَّث، والتَّعازِي والمراثي، واحتجاج القراء، والاشتقاق، والخَطُّ والهِجَاء، وشَرْح شواهد كتاب سيبويه، وما اتفقتْ ألفاظُه واختلفتْ معانيه».

ويَمتازُ أسلوبُ أبي العبَّاس ببَسْطِ العبارة، ووُضُوحِ البيان، والوَلُوعِ بالإكثار من المترادِفات، وإيثارِ الإجمالِ ثمَّ التفصيل، وتكرارِ أسلوبِ الاستثناء من الاستثناء.

تُوفِّي المُبرِّدُ في آخرِ سنة ٢٨٥هـ، وقيل سنةَ ٢٨٦هـ، ودُفِنَ بمقبرة بابِ الكوفة بها في دارٍ اشتُرِيتْ له.



كتابُ «الكامل»

يَنزِلُ كتابُ «الكامل» لأبي العبَّاس المُبرِّدِ مِن أسفارِ الأدبِ ودواوينِه المَنزِلَ الأروع، ويَحِلُّ منها المَحلَّ الأرفع؛ فهو مَعدودٌ من الدَّواوينِ الأربعةِ الأركانِ في هذه الصِّناعة، التي منها تُستَمَدُّ مبادئُ هذا الفَنِّ وأصولُه؛ قال ابنُ خَلْدُون: «وسَمِعْنا مِن شُيوخِنا في مجالسِ التَّعليمِ أن أصولَ هذا الفَنِّ وأركانَه أربعةُ دواوين، وهي: أدبُ الكُتَّاب لابن قُتَيْبة، وكتابُ الكامِلِ للمُبرِّد، وكتابُ البيان والتَّبيين للجاحظ، وكتابُ النَّوادر لأبي عليٍّ القَالِي البَغْدادِيّ، وما سوى هذه الأربعةِ فتبَعٌ لها وفُروعٌ عنها»[(١)].

جَمَعَ فيه أبو العبَّاس - كما قال في مُفْتَتحِه - ضُروبًا من الآداب؛ ما بين كلامٍ مَنثُور، وشِعْرٍ مَرصُوف، ومَثَلٍ سائر، وموعظةٍ بالغة، واختيارٍ مِن خُطبةٍ شريفةٍ ورسالةٍ بليغة، وفَسَّرَ كلَّ ما وَقعَ فيه مِن كلامٍ غريبٍ، أو معنًى مُستَغْلِق، وشَرَحَ ما يَعْرِضُ فيه من الإعراب شرحًا وافيًا[(٢)].

وأثنى أبو الفَرَج المُعافَى على عَمَلِ المُبرِّد في «الكامل» فقال: «وعَمِل أبو العبَّاس مُحمَّدُ بنُ يَزيدَ النَّحْويُّ كتابَه الذي سمَّاه (الكامل)، وضَمَّنه أخبارًا وقِصصًا لا إسنادَ لكثيرٍ منها، وأودَعَه مِن اشتقاقِ اللُّغةِ وشَرْحِها وبيانِ أسرارِها وفِقْهِها ما يأتي مِثلُه به؛ لسَعَةِ عِلمِه، وقُوَّةِ فَهْمِه، ولَطيفِ

(١) مُقدِّمةُ ابن خَلْدُون ١/ ٧٦٣ - ٧٦٤.

(٢) يُنظر: الكامل ١/ ٥.

فِكرتِـه، وصفـاءِ قَرِيحتِـه، ومِـنْ جَلِـيِّ النَّحـوِ والإعـرابِ وغامِضِهمـا مـا يَقِـلُّ وجـودُ مَـن يَسُـدُّ فيـه مَسـدَّه»(١)، ولا يَقـدَحُ مـا أخـذَه «المُعافـى» علـى «الكامِـل» في قِيمةِ الكتـابِ ومكانتِـه.

وقـد أقبلَ العُلمـاءُ علـى كتـاب «الكامـل»؛ يُقرئونـه، ويَشـرحُونه، ويُعلِّقـون عليـه، ويُنبِّهـون علـى أغاليطـه، ويَحْتَذُونَـه في التأليـف؛ فـكان ممَّـن شـرحه: أبـو الوليـد الوَقْشِـيُّ (ت ٤٨٩هـ) في كتابـه: «نُكَـت الكامـل»، وهـو وابـنُ السِّـيدِ البَطَلْيَوْسِـيُّ (ت ٥٢١هـ) في كتابه: «القُـرْطُ على الكامـل»، ونَبَّه على أغلاطِـه الإمـامُ عليُّ بـنُ حَمزةَ البَصْريُّ (ت ٣٧٥هـ) في كتابـه: «التَّنبيهـاتُ علـى أغاليطِ الـرُّواة»، وشَرحَه مِن عُلماءِ العصر الحاضرِ الشَّيخ/ سَيِّد بن عليٍّ المَرْصَفَيُّ (ت ١٣٤٩هـ) في كتابه: «رَغْبَةُ الآمِلِ من كتابِ الكامـل»، واحْتـذَاه في التأليـفِ أبـو الفَتـحِ المَراغِـيُّ (ت ٣٧١هـ) في كتابـه: «النَّهْجَـة»، وعلَّـق عليـه الإمامـان مُغُلْطَـاي بـن قَلِيـج (ت ٧٦٣هـ) وقُطْلُوبُغـا (ت ٨٧٩هـ)، وممـن عُـرِف بإقرائـه مُحمَّـدُ بـنُ أبـي عِلَاقـةَ البَـوَّاب (ت ٣٢٥هـ) وأبـو الحسـن الدَّبَّـاج الإشْبِيلِيّ (ت ٦٤٦هـ)(٢).

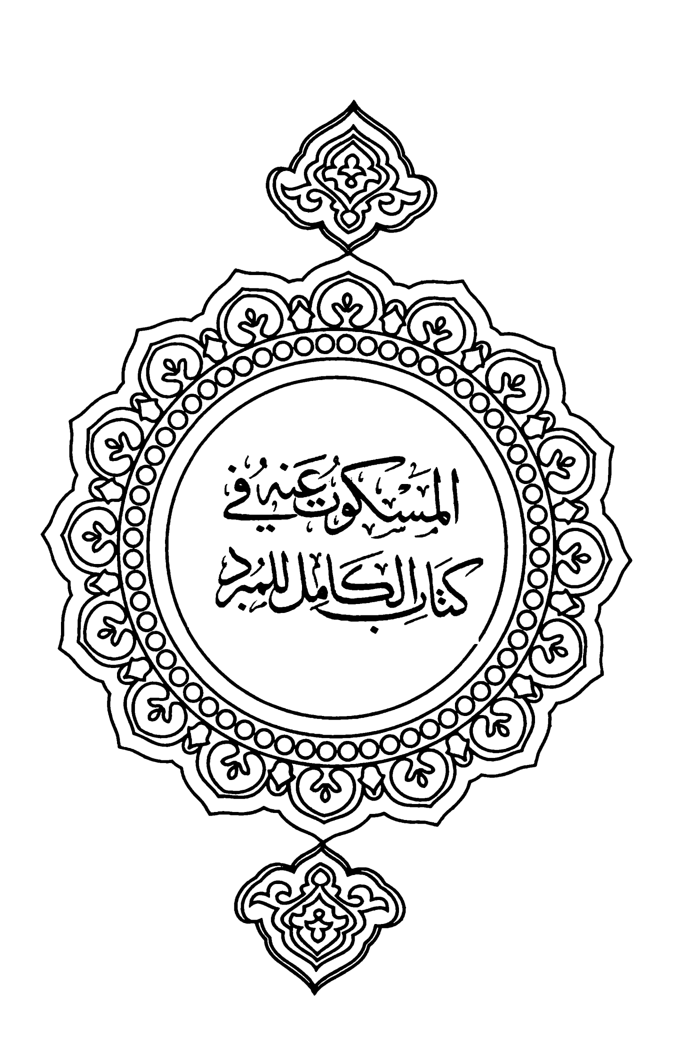
وقـد وَقَـفَ فضيلـةُ الشَّـيخ/ مُحمَّـد عُضَيْمَـة في مقدِّمـة «المُقتضَـب» علـى مـا تَضمَّنـه «الكامـلُ» مـن الأبـوابِ النَّحْويَّـةِ والبلاغيَّـةِ والأدبيَّـة، وأثبـتَ مـا اشـتملَ عليـه مِـن مَباحـثِ هـذه العُلـومِ ومسائِلِها مَقرونـةً بأرقـام صَفحاتِهـا في الكتـاب؛ فلْتُطالَـعْ هنالـك(٣).

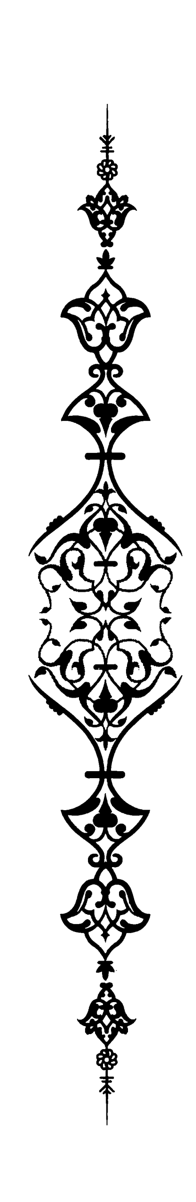
---

(١) الجليس الصَّالح الكافي والأنيس النَّاصح الشافي ١/ ١٦١.

(٢) يُنظر: الكامل ١/ ١٨ - ١٩ [مُقدِّمة الدُّكتور/ مُحمَّد الدَّالي].

(٣) يُنظر: المُقْتضَب ١/ ٦٤ - ٦٥ [مُقدِّمة الشَّيخ/ عُضَيْمة].


المسكوت عنه في
كتاب الكامل للمبرد



مقدمة فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد محمد أبو موسى

الحمدُ لله المُنعِمِ بكلِّ خير، والصَّلاة والسَّلام على رسولِه ﷺ، المُبلِّغِ عن ربِّه كلَّ خير، وبعدُ...

فإنَّ الحديثَ عن المُبرِّدِ وطبقتِه - مِن أمثال: الجاحظ، وابنِ قُتيبة، وأبي هلال، وغيرِهم من علمائنا - يُوجِبُ علينا أن نَذْكُرَ لهم شيئًا أجمَعُوا عليه وخالَفْنَاهم فيه، وهو أنَّهم تكلَّمُوا في النَّحو وفي البلاغة وهم في فَيْضٍ يَفِيضُ مِن الكلامِ الجيِّدِ المُختارِ من شِعْرٍ وغيرِه، وأنَّهم لمْ يَزْرعُوا النَّحوَ والبلاغةَ في نفوسِ أجيالِهم إلَّا مع أو بعد ما زَرعُوا اللُّغةَ؛ بِحُرِّ بيانِها وجودةِ المُختارِ منها، في هذه النُّفوس؛ لأنَّ قِيمةَ النَّحو أنْ تقولَ ولا تُخطِئَ، فإذا كُنتَ لا تستطيعُ أنْ تقولَ فعِلْمُكَ بالنَّحوِ وجَهْلُكَ به سواءٌ، وقِيمةَ البلاغة أنْ تستطيعَ تَمْييزَ الحَسَنِ والأحْسَن، وأنْ تستطيعَ أيضًا أنْ تَصْنعَ الحَسَنَ والأحسَن، فإذا افتَقَدْتَ هذه القُدرةَ فلا قِيمةَ لأيِّ بلاغةٍ حفظْتَها.

والبيانُ مِن الفِطْرة، والعجزُ عن إقامةِ ذائقةِ البيانِ واستخراجِها مِن تحتِ رُكامِ الزَّمانِ والأيامِ عَجْزٌ مُزْرٍ بصاحبِه، ورَاجِعْ كلَّ كلامِ علمائنا في البلاغة مِن لَدُن بِشْرِ بنِ المُعتمِرِ تَجِدْ كلامًا صريحًا، ليس في بلاغة اللِّسان العربيِّ، وإنَّما في بلاغةِ اللِّسانِ الإنسانيِّ، وأنَّهم كانوا يَذْكُرونَ البلاغةَ عند الفُرْس، وعند الرُّوم، وعند الهُنود.. وعند غيرِهم؛ للإشارة إلى أنَّهم يتحدَّثون عن الفِطْرةِ الإنسانيَّةِ، وهي واحدةٌ عند جميع الأمم،

ويقولـون لـكَ: كُـنْ فارسيًّا أو عربيًّـا أو هنديًّـا، واعلـمْ أنَّـك - في النِّهايـة - إنسـانٌ، خَلَقَـكَ الرَّحمـنُ عَلَّمَـك البيـانَ.

وكُتُـبُ هـذه الطَّبقـةِ بيـنَ أيدينـا؛ نَجِـدُ كلامًـا في البلاغـة مُختصـرًا جـدًّا، ويَتْبَعُـه فيـضٌ مِـن الشِّـعر المُختـار العالـي الـذي يَفتـح شـهيَّةَ طالـب العلـم إلـى اللُّغـة، ويُعلِّمُـه مـا فيهـا مـن حكمـة، ورشـاد، وكـرم، وعطـاء، وأَنَفَـة، وحَمِيَّـة. وحَذَفْنـا نحـن كلَّ ذلـك، ووسَّـعْنا الحديـثَ عـن القواعـد، وحَفِـظَ طلَّابُنـا عنَّـا الكثيـرَ مـن أقـوالِ العلمـاء، وأقـلَّ القليـلِ مـن أقـوالِ أهـل البيـان، ثـمَّ إنَّ المسـكوتَ عنـه في كتـاب «الكامـل»، و«البيـان والتَّبييـن»، و«عُيُـون الأخبـار».. وغيرِهـا، أضعـافُ أضعـافِ غيـرِ المسـكوتِ عنـه.

واعلـمْ أنَّـكَ -أيُّهـا القـارئ- هـو الـذي يَـرَى المسكوتَ عنه، وأنَّـه يَتكاثَـرُ بوَعْيِـك أنـت، وبيَقَظتِـك أنـت، ويَغِيبُ بغَفْلتِـك؛ فـإذا رأيـتَ «المُـبرِّد» يَذكُـر بيتًـا مِـن الشِّـعر، ثـمَّ يُكْثِرُ مِـن ذِكْـر نُظَرائـه وأشـباهِه، ويَمُـدُّه محفوظُـه بالكثيـر مـن هـذه الأشـياء، ثـمَّ تَـرَى وَعْيَـك يقـول لـك: إنَّ «المُـبرِّد» ذَكـر هـذا الشِّـعرَ الكثيـرَ المُتشـابِهَ في المعـاني والمُتباعِـدَ في المبـاني؛ ليقـول لنـا: ادرسُـوا المعنـى الواحـد، وابحثُـوا كيـف تَـواردتْ عليـه ألسِـنَةُ أهـل البيـان، وكيـف أصابَـه كلُّ لسـانٍ مِـن الجهـة التـي أصابَـه بهـا، ووَازِنُـوا، ومَيِّزُوا، واختـارُوا.. إذا قـال لـك وَعْيُـك هـذا أصبحـتَ أمـام بـابٍ جليـلٍ مـن أبـوابِ العلـمِ المَسـكوتِ عنهـا، وبَـدأتَ تَـدرُس سَـبْكَ الشَّـاعر ونَسْـجَهُ ورَصْفَـه؛ لأنَّ المعنـى قريـبٌ والبيـانَ عنـه مُختلِـف، وهـذا الاختـلافُ هـو السَّـبْكُ والرَّصْـفُ والنَّسْـجُ والتَّصويـرُ.

وإذا رأيـتَ «المُـبرِّد» يَذْكُـر تشـبيهَ «الشَّـمَّاخ» ليَـدَيِ النَّاقـة في سُـرعتِها بيَـدَيِ امـرأةٍ يَصِفُـهـا بأنَّهـا كريمـةٌ وعَرِيقـةٌ، وقـد نَالَتْهـا الألسـنةُ فغَضِبـتْ وتكلَّمـتْ

وأشارتْ بيدَيْها اللتين صَيَّرهما «الشَّمَّاخُ» مُشبَّهًا به لمُشَبَّهٍ هو: يَدَا النَّاقة، ثمَّ يَذْكُر لك «المُبرِّد» تشبيهًا آخرَ لـ«الشَّمَّاخ»، والمُشبَّهُ هُوَ هُوَ: يَدَا النَّاقة، والمُشبَّهُ به هُوَ هُوَ: يَدَا امرأةٍ غَضْبَى، ثمَّ يَصِفُ هذه الثانيةَ بأنَّها بذِيئةٌ، وتَقولُ أنتَ أيُّها القارئ: لماذا وَصَفَ «الشَّمَّاخُ» المرأةَ الأولى بأنَّها كريمة والمرأةَ الثَّانيةَ بأنَّها بذِيئة، والمُشبَّهُ واحد، والمُشَبَّهُ به واحد؟ أنت في هذه الحالة صِرْتَ أمامَ مَسْكُوتٍ عنه، وتَذهبُ إلى ديوان «الشَّمَّاخ»، وتقرأُ بإمعانٍ شديد؛ لتَتبيَّنَ الشَّيءَ الذي أغْرَاه بوصفِ المرأة الأولى بأنَّها كريمة، والمرأةِ الثَّانيةِ بأنَّها بذِيئة، وتَبدأُ تَفْتَحُ بابَ ليس مُلاءمةَ المُشبَّهِ به للمُشبَّه، وإنَّما باب مُلاءمةِ المُشبَّهِ به لسياقِ القصيدة، وهو غائبٌ عندنا تمامًا، ولو أحسَنَّا وَعْيَ المَسكوت عنه في كلامِ «المُبرِّد» وغيرِه؛ لوجدنَا منهم دعوةً صريحةً لدراستِه.

وقُلْ مثلَ ذلك في الذي جَمَعه «المُبرِّدُ» وغيرُه في وصف الإبل والخيل والرِّياح والأنواء، وكأنَّك أمامَ أبوابٍ مفتوحة لدراسة العلمِ الذي كان في الشِّعر، الذي لم يَكُنْ للعربِ علمٌ سواه، كما قال سيِّدُنا عُمر، وكأنَّهم أرادُوا - أو لم يُريدوا - أنْ يَفتحُوا لنا دراسةَ علمِ الشِّعر الذي ذَكَرَه سيِّدُنا عُمر.

ودَعْ هذا وارجعْ إلى الشَّواهد التي علَّق عليها «المُبرِّد» وعلَّق عليها «عبدُ القاهر»، وتَدبَّر التَّعليقَيْن؛ لِتَرى كيف كان يقرأُ اللَّاحقُ علمَ السَّابق؟ وكيف كان تعليقُ كلِّ واحدٍ منهما أَشْبَه بزمانِه، وأَشْبَه بالذي آلتْ إليه دراسةُ البيان في زمانِه، وأنَّ تعليقَ «المُبرِّد» ما كان يَصْلُح لزمان «عبد القاهر»؟ وهذا كثيرٌ وجيِّدٌ ومُمتِع.

وانظرْ مثلًا إلى قول «المُبرِّد» في وصْفِ بعض الشِّعر بجودة اللَّفظ، وحُسْنِ الرَّصْف، واستواءِ النَّظم، وهل يَجُوز لي أو لك أن نَصِفَ الشِّعرَ بهذا الوَصْف الذي وَصَفه «المُبرِّد»، أم أنَّ الواجبَ أنْ نَستخرِجَ من هذا الشِّعر جودةَ اللَّفظ، وحُسْنَ الرَّصْف، واستواءَ النَّظْم، وأنْ نَعتقِدَ أنَّه لمَّا قال لنا هذا قال الذي عنده، وعليك أنت أنْ تقولَ الذي عندك، وأنْ تُراجِعَ الشِّعرَ الموصوفَ بهذه الأوصاف، وأنْ تَضَعَ يدَك ويَدَ قارئك على جودةِ اللَّفظ، وحُسْنِ الرَّصْف، واستواءِ النَّظم؟

وقُلْ مثلَ ذلك في الأبياتِ التي تراه يقول فيها: «قال الشُّعراءُ قَبْلَه فلم يَبلُغوا مِقدارَه»؛ هل تَرَى مِن العلمِ أنْ نَحفظَ هذا وأنْ نَقولَه لطُلَّابنا، وأنْ نكتبَه في كُتُبنا مِن غير أنْ نُبيِّنَ وأنْ نَتبيَّنَ الذي قالَه الشُّعراءُ، وأنْ نُبيِّنَ وأنْ نَتبيَّنَ الذي قالَه، والذي لم يَبلغِ الشُّعراءُ مِقدارَه؟

وكلُّ هذا لا يكونُ إلَّا بالتَّحليلِ الدَّقيقِ لمباني الكلام ولمعانِيه، ووَضْعِ اليد على الصَّنْعةِ الفائقة، والنَّظمِ المُعْجِبِ الرَّائع. وكلُّ الذي تَبحَثُه أنت وتُضِيفُه إلى كلامِ مَن سَبقُوك هو اللَّبِنَةُ التي تَضَعُها في العلم، وليستِ اللَّبِنَةُ إلَّا استخراجَ مَسْكُوتٍ عنه في كلامِ غيرِك، وتَذكَّرْ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «فأنا اللَّبِنَةُ»[1]، ومِن الاسْتِنَان بسُنَّتِه واتِّباعِه وحُبِّه أنْ تَقولَ أنت وأنْ أقولَ أنا: «فأنا اللَّبِنَةُ»، في الباب الذي انقطَعْتَ أنت إليه، والبابِ الذي انقطَعْتُ أنا إليه، وهذا هو التَّقدُّم الذي ليس للتَّقدُّمِ بابٌ سِواه.

---

(١) مِن حَديثِ البُخاريِّ الذي أخرجَه بسَندِه عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ مَثَلِي ومَثَلَ الأنبياءِ مِن قَبلِي كمَثَلِ رجلٍ بنى بيتًا فأحْسَنَه وأجْمَلَه إلَّا مَوضِعَ لَبِنَةٍ مِن زاوية، فجَعلَ النَّاسُ يَطوفُون به ويَعْجَبُون له ويقولون: هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ؟ قال: فأنا اللَّبِنَةُ وأنا خَاتِمُ النَّبيِّينَ»، صحيح البُخارِيّ، كتاب: المناقب، باب: خَاتِمُ النَّبيِّين ﷺ، حديث رقم (٣٥٣٥).

ودَعْ هذا كلَّه وارجِعْ إلى نفسِك وفي يدِك القلمُ وأنت تكتُب كتابًا وتبحَث في باب، لا شكَّ أنَّك ستَجِدُ كثيرًا مِن الأفكار التي تكتُب فيها، لو أَعْمَلْتَ عقلَك وراجَعْتَ وتَدبَّرْتَ وتَغلْغَلْتَ -كما يقولُ علماؤنا-؛ لظَهَرَ لك من تحت الفكرة فكرةٌ جديدة، ويُسهِّلُ إليك الوصولَ إليها سَعَةُ علمِك في الباب الذي تَعملُ فيه، فليس التَّدبُّرُ وحدَه كافيًا، وإنَّما التَّدبُّرُ بالعقلِ العلميِّ الذي اتَّسعَ تَحصيلُه، واتَّسعَ وَعيُه في هذا الباب، ولو لم يكن تحت الفكرة فكرةٌ، وتحت العِلم علمٌ، لما رأينا الثَّانِيَ يَبنِي على كلام الأوَّل، ولَتوَقَّفتِ العلومُ كلُّها، وإنَّما كانت تَنمُو وتَتقدَّم باستخراج عِلمٍ من تحت عِلمٍ، وفِكْرٍ من تحت فِكْر، وفَنٍّ من تحت فَنٍّ، وفلسفةٍ من تحت فلسفة، وأقولُ لك: إنَّك ستَصِلُ إلى هذا بتَجرِبتك.

وما تَغلْغلَ عقلي في فكرةٍ كُتِبَتْ في أيِّ زمنٍ إلَّا وَجدتُ تحتَها فكرة، ووَجدتُ كلامَ العلماء الكبار صريحًا في بيان هذا، ورَاجِعْ وَصْفَ عبد القاهر لتُراث العلماء في علم البلاغة قَبْلَه، وأنَّه - كما قال - كالرَّمزِ والإيماء والإشارةِ في خفاء، وأنَّه هو وحدَه حَوَّل الرَّمزَ والإيماء والإشارةَ في خفاء إلى عِلمٍ يُدْرَس، ثمَّ ذَكَر أيضًا أنَّه كالإشارة إلى مكان الخَبِيءِ ليُستخرَج، واسأَل أنت عن هذا الخَبِيءِ المدفون، وأنَّ السَّابقَ استشعرَه وأشار إلى مكانه ليَستخرِجَه اللَّاحقُ، هل هو شيءٌ غيرُ علمٍ تَستخرِجُه مِن مَدَافِنِه، وتُصَفِّيه، وتُثَقِّفُه، وتَجعلُه لَبِنَةً من لَبِناتِ العلم؟

وهذا يَعني أنَّ قلمَك الذي في يدِك إذا لم يكن قادرًا على أنْ يَستخرِجَ دفائنَ المعرفة من مَراقدِها فالأَوْلى بك أنْ تَتركَه. ولا تَقُلْ لي: أين الدَّفائنُ التي استخرجَها قلمُك؟ لأنَّ جوابِي هو أنَّني انقطعْتُ

إلى القراءة والبحث، وبَذلْتُ أقْصَى طاقتِي، وهذا حَسْبِي، «ومُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَها مِثْلُ مُنْجِحِ»(١).

ثمَّ إنَّني وَجدتُ شيئًا آخر؛ هو أنَّ الفكرةَ التي أُسْكِنُها في عقلي وقلبي، وأُسْكِنُ فيها عقلي وقلبي؛ لتَنمُوَ هي بعقلي وقلبي، ولِينمُوَ عقلي وقلبي بها - إذا لم تَفتحْ لي بابَ فكرةٍ وراءها أثارتْ في نفسي فكرةً ليستْ منها وإنَّما كانت بها، وأيقنتُ أنَّ الله -سبحانَه- لا يُضيع أجرَ مَن أحسنَ عملًا، ولو كان الذي يُحسِن عملَه جاحدًا لوجود الله، وأنَّ مَن يُرِيد حَرْثَ الدُّنيا يُوفِّيه الله منها؛ فكيف إذا كنَّا نُريد خدمةَ خيرِ أمَّةٍ أُخْرِجتْ للنَّاسِ؟

ودَعْكَ من تجرِبتي ومن تجرِبتك ورَاجِعْ قولَ «المُزَنيِّ»، وأنَّه قرأ «رسالة الشَّافعيِّ» خمسَمائةِ مرَّة، وأنَّه كان يَفْهم منها في كلِّ مرَّةٍ شيئًا لم يَفهَمْه في التي قبلَها، وأثبتَ ذلك المرحوم أحمد شاكر في مُقدِّمتِه لتحقيق «الرِّسالة».

هل كان «المُزَنيُّ» يَفهم ظاهر كلام «الشَّافعيِّ»؟ أم أنَّه تَغلْغلَ مِن ظاهرِها إلى باطنِها، وعاش في عطاءِ الذي تحت هذا الظَّاهر؟ وأنَّه تَركَها بعد خمسِمائةِ قراءةٍ وهي تُعْطيه، ولو زادَ لَزادَتْه، أليس كلُّ هذا مِن المَسكوتِ عنه في رسالة الشَّافعيِّ؟

وأيضًا عَدِّ عن كلِّ الذي مَضَى واقرأ فقط «القَوْس العَذْراء» للمرحوم محمود شاكر، وهي أكثرُ من مائتي بيتٍ مِن الشِّعر، وقد بَنَى هذه

(١) هذا عَجُزُ بيتٍ من بحر الطويل، أورده ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (١/ ٣٤٣)، ونسبه لأوس ابن حجر، وصدرُه والبيتُ السابق له:

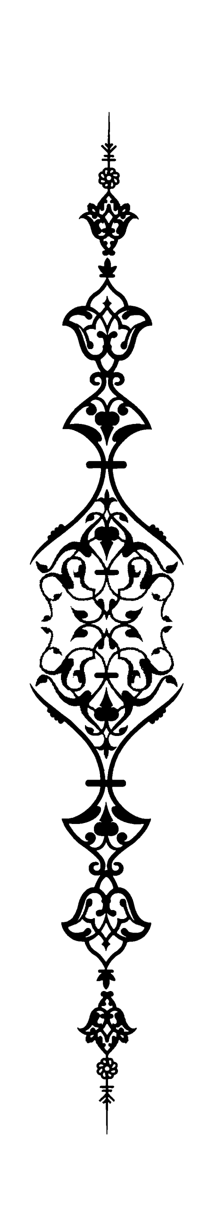
وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذا عِيَالٍ وَمُقْتِرًا ... مِنَ الْمَالِ يَطْرَحْ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ
لِيُبْلِيَ عُذْرًا أَوْ لِيَبْلُغَ حَاجَةً ... وَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحِ

الأبياتَ على أبياتٍ لـ«الشَّمَّاخ» وَصفَ فيها القَوْس، ولمَّا قرأتُها رأيتُ أنَّها نَموذجٌ جليلٌ نَقْتدِي به في قراءةِ تُراثِنا؛ لأنَّها مَدَّتْ أبياتَ «الشَّمَّاخ» القليلةَ، وقرَأتْها قراءةً جديدةً، وكَتبتُ عنها رسالةً صغيرةً عُنوانُها: «القوسُ العذراءُ وقراءةُ التُّراث»، وقَرأ المرحومُ محمود شاكر ما كَتبتُه وقال لي إنَّ كثيرًا من كُتَّابنا كَتبُوا عن قصيدتِه «القَوْس العَذْراء»، ولم يَلتفِتْ منهم أحدٌ إلى هذه الجهة التي الْتفتُّ أنا إليها.

ولم يكنْ هذا منِّي إلَّا لأنَّني أُعاني فِكرةَ: كيف أَنقلُ تُراثَنا مِن الزَّمن الذي قِيلَ فيه إلى الزَّمن الذي أنا فيه، ووجدتُ المرحومَ محمود شاكر أصابَ كلَّ الإصابة لمَّا نَقَلَ وصفَ «الشَّمَّاخ» للقَوْس من زمان «الشَّمَّاخ» إلى زماننا، وكلٌّ يَبذُلُ ما عنده.

وصلَّى الله على سيِّدِنا مُحمَّدٍ، وعلى آلِه، ومَن تَبِعهم بإحسان.





بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمَّ أَعِنَّا، وتقبَّلْ منَّا، وصلِّ وسلِّمْ وباركْ على سيدنا محمَّدٍ وعلى آله كما صلَّيتَ وسلَّمتَ وباركتَ على سيدنا إبراهيمَ وعلى آلِه في العالَمِين إنَّك حميدٌ مجيد.

«الكامل» في تاريخ البلاغة

إنَّ بيان المسكوت عنه في كتاب «الكامل» يُوجِبُ أن أشيرَ إلى أشياء تتعلَّق بنشأة البلاغة؛ لأن المسكوتَ عنه يتعلَّق كثيرٌ منه بهذه النشأة، وبيانَ المسكوت عنه تصحيحٌ لوَضْع كتاب «الكامل» في تاريخ نشأة هذا العلم، ثمَّ إن كثيرًا من المسكوت عنه ممَّا يجب أن يَدخُلَ في علم البلاغة نفسِه وليس في تاريخه، ودخولُه في هذا العلم يملأ فراغًا ويزداد به العلمُ حُسنًا وعطاءً واتِّساعًا.

والذين كتبوا في تاريخ البلاغة، وهم قِلَّةٌ قليلةٌ مِن أَمَاثِلِنا(١)، كانت عنايتُهم بالمؤلَّفات هي الغالِبة؛ فيتكلَّمون عن كتاب «البديع» لابن المعتز و«نقد الشِّعر» لقُدامة.. وهكذا، وهذا جيدٌ وضروريٌّ، ومن الجيِّد

(١) مِنْ أَمَاثِلِنا الذين كتبوا في تاريخ البلاغة:

- الشيخ/ أحمد مصطفى المراغي؛ كَتَبَ: «تاريخ علوم البلاغة والتَّعريف برجالها»، وصَدرَتْ طبعتُه الأولى سنة ١٣٦٩هـ = ١٩٥٠م عن مكتبة مصطفى البابي الحلبي.

- الدكتور/ شوقي ضيف؛ كَتَبَ: «البلاغة: تطوُّرٌ وتاريخ»، وصَدرَتْ له طَبعاتٌ مُتكاثِرَةٌ عن دار المعارف.

والضَّـروريِّ أيضًـا العنايـةُ بتاريـخ نشـأة الفنـون البلاغيَّـة، ومتـى نشـأ هـذا الفـنُّ، وعلى يَـدِ مَـنْ، ومـا السِّياق الـذي أثـار نشـأتَه، وكيـف كان سَـاعةَ وُلِـدَ، ومـا قِصَّتُـه بعـد ذلـك في الكُتـب، ثـم أيضًـا مِـن تاريـخ العلـمِ أن نتعـرَّفَ علـى الكُتـب والدِّراسـات التـي بَشَّـرتْ بـه قبـل أن يُوجَـد، وهكـذا تَجِـدُ التَّاريـخَ يشـمل أمـورًا كثيـرة.

والـذي يَكتـب في بـابٍ يُذْكَـرُ ويُشْكَرُ، ولا نَقِفُ عنده ونقـول: «لمـاذا تَـرك كـذا وكـذا؟»، وإنَّمـا علينـا أن نبـدأَ نحـن مِـن حيـث انتهـى غيرُنـا، ويكـونَ عَملُنـا قائمًـا علـى طريقـة المُعاقَبـة أو التَّعاقُـب الـذي تَحـدَّث عنـه العالِـمُ المُلهَـمُ حَمَـدُ بـنُ إبراهيـمَ بـن سـليمان الخَطَّابي، وأراد أن يبـدأ الثَّـاني مِـن حيـث انتهـى الأوَّلُ وليـس مِـن حيـث بـدأ الأوَّل[١].

وقد أجمعَ أهلُ العلم على أنَّ عبد القاهر الجُرجَانِيَّ هو مؤسسُ علم البلاغة، والواقعُ التَّاريخيُّ يقول ذلك، وليس لأحدٍ أن يُخالِفَ فيه؛ لأنَّ الذي صار إليه هذا العِلمُ بعد عبد القاهر غيرُ الذي كان عليه هذا العِلمُ قبلَه.

لقـد تَسـاندَتْ جهـودٌ كثيـرةٌ وتَعاونَـتْ وتَضامَّـتْ في تأسيس علـم النَّحْـو، وتَسـاندَتْ وتَضامَّـتْ وتَعاونَـتْ جهـودٌ كثيـرةٌ في تأسيس علـم الفِقْـه، ثـمَّ كان

(١) تحدَّث الخَطَّابِيُّ عن مَذهَبِ «التَّعاقُب» في سِياقِ نَعْيِه على مَن سبقوه طريقتَهم في التَّصنيفِ في غريب الحديث؛ إذ قال بعد أن عدَّد جَمْعًا من هذه المؤلَّفات: «.. إلَّا أنَّ هذه الكُتبَ على كَثْرةِ عَددِها إذا حُصِّلتْ كانت كالكتاب الواحد؛ إذ كان مُصنِّفوها لم يَقْصِدوا بها مَذهبَ التَّعاقُب كصَنيعِ القُتَيْبِيِّ في كتابِه، إنَّما سَبيلُهم فيها أن يَتوالَوْا على الحديث الواحد فيَعْتَوِرُوه فيما بينهم، ثم يَتبارَوْن في تفسيرِه، يَدخُلُ بعضُهم على بعض، ولم يكنْ مِن شَرطِ المَسْبوقِ منهم أن يُفرِجَ للسَّابِقِ عمَّا أحرزَه، وأن يَقْتَضِبَ الكلامَ في شيءٍ لم يُفسَّرْ قبلَه، على شاكلة مَذهبِ ابن قُتيْبة وصَنِيعِه في كتابه الذي عَقَّبَ به كتابَ أبي عُبَيْد»، غريب الحديث ١/ ٤٩ - ٥٠.

أنْ فَتحَ الله على هذا الجُرجانِيِّ العَريقِ وأَسَّسَ وحدَه عِلمًا مِن أجلِّ علوم العربيَّة وأشرفِها، وهذا ممَّا لا مُنازعةَ فيه، وهذا يَجعلُ عملَنا في دراسة نشأة هذا العِلم أَيْسرَ؛ لأننا نبحث عن الذي كان بين يَدَيْ هذا الرجلِ وحدَه وهو يَنْهَضُ بأجلِّ ما يَنْهَضُ به بَشرٌ بعد الأنبياء، وهو صِناعةُ عِلمٍ شَرِيف.

أمران لا بُدَّ مِن طُول النَّظَرِ فيهما:

الأمرُ الأوَّل: حَصِيلةُ ما كان بين يَدَيْه مِن كلام علماء هذا الشَّأن.

والثَّاني: قُدرَتُه هُو، وطَبْعُه هُو الذي أعانَه على أنْ يَستخرِجَ من كلام السَّلَف ما استخرج.

وهذا الأمرُ الثَّاني كانت له آثارُه الواضحةُ في كِتابَةِ عبد القاهر؛ ترى ذلك في حديثِه المُستفِيضِ عن مَبْنَى الطِّبَاعِ ومَوضُوع الجِبِلَّة، واستخراج كَثيرٍ مِن أصول هذا العِلم مِن هذه الطِّبَاعِ وهذه الجِبِلَّة، وكأنَّه يَربِطُ أصولَ هذا العِلم بهذه الطِّباع، ويقول لنا: إنَّها ستَتَغيَّر إذا تَغيَّرتْ هذه الطِّبَاع وتَغيَّرتْ هذه الجِبِلَّات، وهذا لن يكون؛ لأنَّها مِن سُنَنِ الله، ولن تَجِدَ لسُنَّة الله تبديلًا؛ فالإنسانُ منذ أن خُلِقَ يُحِبُّ الحُسْنَ ويَكرَهُ القُبْح.

هناك نَصَّان مُهِمَّان لا نستطيع أنْ نُصحِّحَ فَهْمَ نشأة هذا العلم إلا بوضعِهما أمام عُيون أهل العلم.

النَّصُّ الأوَّل يَصِفُ فيه عبدُ القاهر كلامَ سَلَفِه مِن علماء الأمَّة الذين تكلَّموا في هذا العلم، وأنَّ حديثَهم عن المُراد بالبلاغة والفصاحة كان حديثًا غامضًا جدًّا، وكذلك حديثُهم في بيانِ حُسْنِ ما استحسَنُوا من الشِّعْر وغيره.

ونحن نَعلَمُ أن الحديثَ عن المراد بالبلاغةِ كان أكثرُه يُقال في مسألة الإعجاز، أمَّا الحديثُ عن وَصْفِ الحُسْنِ فقد كان يُقال في الكلام كلِّه.

يَذْكُر عبدُ القاهر أنَّ عُلماءنا الذين تكلَّموا في هذا أو ذاك كان كلامُهم شديدَ الغُموض، لا يَفْهَمُه إلَّا مَن كان في طبقتِهم، وكأنَّهم كانوا يتكلَّمون بلُغَةٍ خاصَّةٍ بهم، وقد بلغَ إحساسُه بهذا المعنى غايتَه حين قال: «وكأنَّه كان بَسْلًا حرامًا أنْ يَفْهَمَ عنهم غيرُهم»[1]، وفي كل بابٍ مِن أبواب العِلم يُكرِّر الشَّكْوى مِن غُموض الكلام فيه.

وقد افتتح عبدُ القاهر كلامَه في أبواب العلم في كتاب الدَّلائل بهذا النَّصِّ؛ قال رَحِمَهُ اللهُ: «ولم أَزَلْ منذ خَدمْتُ العلمَ أنظرُ فيما قاله العُلماء في معنى (الفصاحة) و(البلاغة) و(البيان) و(البراعة)، وفي بيان المَغْزَى من هذه العبارات وتفسيرِ المراد بها، فأجدُ بعضَ ذلك كالرَّمْزِ والإيماء، والإشارةِ في خفاء، وبعضَه كالتَّنبيه على مكان الخَبِيءِ ليُطْلَب، ومَوضِعِ الدَّفِينِ ليُبْحَثَ عنه فيُخْرَج، وكما يُفتَحُ لك الطريقُ إلى المطلوب لِتَسْلُكَه»[2] انتهى كلامه.

(١) «البَسْلُ»: الحَرَامُ، ومِن معانيه: «الكَراهةُ، والفَظَاعَةُ، والشِّدَّة»، يُنظر: المحكم والمحيط الأعظم (ب س ل).
ونَصُّ كلام الإمام عبد القاهر: «فإنَّك إذا قرأتَ ما قاله العُلماءُ فيه وجدتَ جُلَّه أو كُلَّه رمزًا ووَحْيًا، وكِنايةً وتعريضًا، وإيماءً إلى الغرض مِن وَجْهٍ لا يَفْطُنُ له إلَّا مَنْ غَلْغَلَ الفِكْرَ وأدَقَّ النَّظَرَ، ومَنْ يَرجِعُ مِن طَبْعِه إلى أَلْمَعِيَّةٍ يَقْوَى معها على الغَامِض، ويَصِلُ بها إلى الخَفِيِّ، حتى كأنَّ بَسْلًا حَرامًا أنْ تَتجلَّى معانيهم سَافِرةَ الأَوْجُه لا نِقابَ لها، وباديةَ الصَّفحةِ لا حِجَابَ دُونَها، وحتَّى كأنَّ الإفصاحَ بها حَرامٌ، وذِكْرَها إلَّا على سبيل الكناية والتَّعريض غيرُ سائغ»، دلائل الإعجاز، ص ٤٥٥.
(٢) دلائل الإعجاز، ص ٣٤.

وهذا هو التُّراثُ البلاغِيُّ الذي كان بين يَدَيْ عبد القاهر، وهو حَصِيلةُ أربعةِ قرون، ولك أن تقولَ: هذا هو علمُ البلاغة إلى زَمَن عبد القاهر، وهذه هي الرُّموزُ والإشاراتُ التي ما زال عبدُ القاهر يُحاوِرُها ويُداوِرُها حتَّى تركها لنا في كتابَيْه الجليلَيْن «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز».

والمُهمُّ أنْ نُراجِعَ كلامَه في هذا التُّراث أو في هذه البلاغة قبلَه؛ لأنَّ هناك فَرْقًا بين كلامٍ هو كالرَّمْزِ والإيماء، وكلامٍ هو إشارةٌ إلى مكان الخَبِيءِ ليُطلَب؛ فنحن أمام الرَّمْزِ والإيماءِ نحاول فَهْمَ هذا الرَّمْزِ وهذا الإيماء، وهذا شيءٌ والقولُ بأن هنا خَبيئًا عليك أن تَستخرِجَه شيءٌ آخر؛ لأنك إذا استخرجتَه لم يَعُدْ غامضًا ولا رمزًا ولا إشارة.

وقد عُنِيتُ بهذا منذ قراءاتي الأولى للشَّيخ، ووَجْدتُ أكثرَ كلام العلماء مِن نَوْعِ الإشارة إلى مكان الخَبِيء؛ لأن الذي يقول لي: «هذا جَيِّدٌ حَسَنٌ» أو: «هذا أَجْوَدُ وأَحْسَنُ»، يقول لي: «ابحثْ فيه وستَجِدُ الجَودةَ والحُسْن، أو الأَجْوَدَ والأحْسَن، وهذا الحَسَنُ وهذا الأَحْسَنُ هو الخَبِيءُ الذي عليك أن تستخرجَه»[1]، وكثيرٌ مِن كلام أبي العبَّاس مِن هذا الباب.

---

(١) شُغِلَ شيخُنا كثيرًا بهذه القضية، ولم يكتف بالتَّنظير لها وإنما أتبعَه تطبيقًا؛ فبحث في الحَسَنِ والأَحْسَنِ والجيِّد، واستخرج منها سِرَّ الحُسْن وسِرَّ الأَحْسَنِيَّة وسِرَّ الجودة، وكتب في ذلك كتابًا كبيرًا سمَّاه: «من التُّراث النَّقديِّ»، وقال في مقدمته (ص ١٠): «كُتُب هؤلاء النُّقَّاد مليئةٌ بالشِّعْر الذي استحسنوه، وليس فيها شيءٌ عن سِرِّ استحسانهم للذي استحسنوه، وهذا يعني أن سِرَّ استحسانهم ساكنٌ في هذا الشعر؛ فكان شُغْلِي الأكثرُ هو البحثَ عن هذا الحاضر الغائب، وهذا أغْمَضُ ما في الشِّعْر، وأكْرَمُ ما في الشِّعْر، ولم أعرف نَفْعًا يَنْفعُ الجيل أكثر من أن نُقَرِّبَه إلى سِرِّ استحسان البيان إذا غَمَضَ علينا أن نضع يده على سر الاستحسان».

ولـو قـال قائـلٌ: إنَّ كلَّ عَمـلِ عبد القاهـر هـو شَـرحٌ للرُّمـوزِ والإشـارات وبَحْـثٌ عـن الخَبِـيءِ؛ ليُخـرَجَ، لـم يكـن مخطئًـا، والشَّـارِحُ الحَـقُّ هـو الـذي يُضِيـفُ إلـى المَشـروحِ إضافـاتٍ لا تُخْرِجُـه مِـن بابِـه، والوُقـوفُ عنـد بيـان مـراد المُصنِّف خُطـوةٌ، وإضافـةُ مـا يُثيـره بيانُـه في نفوسـنا خُطـوةٌ ثانيـة، وهـي التـي يَتحـرَّك بهـا العِلـمُ إلـى الأمـام، والوقـوفُ عنـد الخُطـوةِ الأولـى، التـي هـي بيـانُ مـرادِ المُصنِّف، عَمـلٌ جيِّد، ولكنَّه دَاخِـلٌ في بـاب «مَحَلَّك سِرْ»[1].

وإذا كانـت نشـأةُ البلاغـة في خُطُواتِهـا الأوسَـعِ في عَمـلِ عبـد القاهـر مؤسَّسـةً علـى شَـرحِ المُعجَـمِ البلاغـيِّ الغامِـض - كان إهمـالُ هـذا المُعجَـمِ والسُّكوتُ عـن مصـادرِه إهمـالًا وسُكوتًا عمَّـا لا يجوز إهمالُـه والسُّكوتُ عنـه، وكان أيضًـا إغماضًـا لعامـلٍ أساسِـيٍّ في تاريـخ العلـم.

وتَستطيعُ أن تَستخرِجَ من كتـاب «الكامـل» جُزءًا كبيـرًا مـن هـذا المُعجَـمِ الغَامِـض، وتَستطيعُ أن تقـولَ إنَّ أبـا العبَّـاس كان يُخاطِـبُ بهـذا مَـنْ هُـمْ في طبقَتِـه، وكأنَّـه كان بَسْـلًا حَرامًـا أنْ يَفهَـمَ عنـه غيرُهـم، وقُـلْ مِثـلَ ذلـك في كتـاب «البيـان والتَّبْييـن»، ولكـنَّ «البيـان والتَّبْييـن» أخـذَ بعـضَ حقِّـه في تاريـخ العلـم؛ لأن الجاحـظ كان يَلْفِـتُ عُيـونَ الدَّارسين للشِّـعر أكثـرَ ممَّـا كان يَلْفِتُهـم أبـو العبَّـاس الـذي كان أديبًـا غَلـبَ عليـه النَّحْـوُ فعُرِفَ بـه، وكان الجاحـظ أديبًـا لـم يَغْلِـبْ عليـه النَّحْـوُ فلـم يُعْـرَفْ بـه.

---

(١) «محلَّك سِرْ» تعبيرٌ معناه: «السَّير في وَضْع الثَّبات»، والسَّيْر في وَضْع الثَّبات لا يُنْتِج تَقدُّمًا، بل يُسْلِم إلى نقيضه، كما أن فيه استصحابًا للمَشَقَّة التي لا نَفْع فيها ولا فائدة منها.

رموز عبد القاهر وشروح التلخيص

وقبل أنْ أَدَعَ هذا النَّصَّ وما يتعلَّقُ به أُشِيرُ إلى حقيقةٍ غائبةٍ عن كثيرٍ من الناس؛ هي أنَّنا أَلِفنَا أن نَمْدَحَ بلاغةَ عبدِ القاهر وأن نَعِيبَ بلاغةَ السَّكَّاكِيِّ وشُرَّاح «التَّلخِيص»، وغَفَلْنا عن حقيقةٍ لا شَكَّ فيها؛ هي أن البلاغةَ بدأتْ بالرُّمُوزِ والإشارات، ثم صَيَّرَ عبدُ القاهر هذه الرُّمُوزَ وهذه الإشاراتِ أصولًا علميَّةً واضحة، ثم جاء السَّكَّاكِيُّ ووَضَع هذه الأصولَ في مَعَاقِد، كما قال[1]، ثم جاء الخَطِيبُ ولخَّص هذه الأصولَ ذاتَها في مَتْن «التَّلخِيص»[2]، ثم جاء الشُّرَّاحُ وشرحوها في شُرُوحِ التَّلخِيص، ثم جاء أصحابُ الحَواشِي وعلَّقوا على هذه الشُّرُوح؛ كالسَّيِّد الشَّريف[3]، ثم جاء أصحاب التَّقارِير وتَعقَّبوا هذه الحَوَاشِيَ؛ كالعلَّامة السِّيَالْكُوتِيِّ[4].

---

(١) قال السَّكَّاكِيُّ في أوَّل القِسمِ الثَّالثِ من «مِفْتاح العلوم»: «القِسمُ الثَّالثُ مِن الكتابِ في عِلمَي المعاني والبيان، وفيه مقدِّمةٌ لبيان حَدَّي العلمَيْن والغَرضِ فيهما، وفصلان لضَبْطِ مَعاقِدِهما والكلام فيهما»، وفسَّر السَّعدُ التَّفْتَازَانِيُّ «المعاقدَ» بقولِه: «والمُرادُ بالمَعاقدِ: ما يَتَّصِلُ به المَقاصِدُ، وتَرتبِطُ به أشدَّ ارتباط، حتَّى يَجرِيَ مَجْرَى الأجزاءِ منها؛ فلذا جعلوها عِبارةً عن الموضوعات والمبادئ»، شرح مِفتاح العُلُوم للتَّفْتَازَانِيِّ ١/ ١١٤، ١٢٠.

(٢) قال الخَطِيبُ القَزْوِينِيُّ في فاتحةِ «تَلخِيص المِفْتاح»، بعد التَّنويه بـ«مفتاح العلوم» والثَّناءِ عليه: «.. ولكنْ كان غيرَ مَصُونٍ عن الحَشْوِ والتَّطويلِ والتَّعقِيد، قابلًا للاختصار، مُفتقرًا إلى الإيضاحِ والتَّجريد، أَلَّفْتُ مختصرًا يَتضمَّنُ ما فيه من القواعد، ويَشتَمِلُ على ما يُحتَاجُ إليه من الأمثلةِ والشَّواهد، ولم آلُ جُهْدًا في تحقيقِه وتهذيبِه، ورتَّبْتُه ترتيبًا أقربَ تناوُلًا من ترتيبِه، ولم أُبالِغْ في اختصارِ لفظِه تَقريبًا لتعاطيه، وطلبًا لتسهيلِ فَهْمِه على طالبيه»، تلخيص المفتاح، ص ٢٢ – ٢٣.

(٣) هو: عَلِيُّ بنُ مُحمَّد بنِ عَلِيّ، المعروف بالشَّريف الجُرجَانِي، فيلسوفٌ، مِن كِبار العُلماءِ بالعربيَّة، له نَحوُ خمسين مُصنَّفًا، منها حاشيةٌ على كتابِ «المُطوَّل»، وهو شَرحُ السَّعْد التَّفْتَازَانِيِّ على «تلخيص المفتاح»، تُوفِّي سنة ٨١٦هـ، يُنظر: الأعلام للزِّرِكْلِي ٥/ ٧.

(٤) هو: عبدُ الحَكيم بنُ شَمسِ الدِّين الهِندِيُّ السِّيَالْكُوتِيُّ، فَاضِلٌ، مِنْ أهلِ سِيَالْكُوت التَّابعة لِلَاهور بالهند، له تآليفُ، منها حاشيةٌ على «المُطوَّل»، تُوفِّي سنة ١٠٦٧هـ، يُنظر: الأعلام للزِّرِكْلِي ٣/ ٢٨٣.

وهكذا تقلَّبتْ هذه البلاغةُ - وأصلُها الرُّمُوزُ والإشاراتُ - في هذه المراحل، والحقيقةُ هي التي ترى فيها التَّقديمَ يُفيد العنايةَ عند عبدِ القاهر، الذي هو أوَّلُهم، وعند شُرَّاح التَّلخِيص والشَّيخِ الشِّرْبِينيِّ[1]، الذي هو آخِرُهم، وقُلْ مِثلَ ذلك في التَّعريفِ والتَّنكير، والفَصْلِ والوَصْل، والإيجاز والإطناب، وكلِّ أبواب المجاز: الأصْلُ العِلميُّ واحدٌ وطريقةُ التَّناوُلِ مختلفةٌ.

وليس عندنا بلاغةٌ يمكن أن تُسمَّى «بلاغةَ السَّكَّاكِيِّ» وأُخرى «بلاغةَ الزَّمخشَرِيِّ» وثالثةٌ «بلاغةَ الخَطِيب»؛ لأنَّ البلاغةَ واحدةٌ وأساليبَ الإبانةِ عنها مُختلفة، ولا شكَّ أنَّ هناك اختلافًا بين هذه الكُتبِ التي تُعالِجُ عِلمًا واحدًا؛ كاختلاف كُتُبِ علماء الشَّافعيَّة وعلماء المَالِكيَّة والنُّحاة.. إلى آخره، والفِقْهُ واحدٌ، والنَّحْوُ واحدٌ، والبَلاغةُ واحدةٌ.

النَّصُّ الثَّاني الذي هو ضَرورةٌ في معرفة رسالة البلاغة، ومَواطِنِ وُجودِها، وكيف تُستثمَر - وغَيْبَةُ هذا النَّصِّ تُفْضِي إلى الاضطراب في التَّعامُل مع هذا العِلم، وفي الكتابةِ عنه، وفي عَرْضِه لأجيال الأمَّة - هذا النَّصُّ تَراه كثيرًا في كلام عبد القاهر، وتَراه غالبًا يَذْكُرُه في رؤوس الأبواب، ويَدُورُ حول التَّذكيرِ الدَّائمِ بأنَّ البلاغةَ لا تَهْدِينا إلى معرفة الحَسَنِ والأَحْسَن، وإنَّما يَهْدِينا إلى ذلك الطَّبْعُ، وليس في علومنا عِلمٌ إذا حَفِظْناه أعانَنا على معرفة الفاضل والأفضل، وليس أمامنا في هذا إلا أنْ تَلتقِيَ طبائعُنا مع الشِّعْرِ وجهًا لوجه مِن غيرِ أيِّ وسيطٍ بيننا وبينه.

---

(١) هو: عبدُ الرَّحمنِ بنُ مُحمَّدٍ الشِّرْبِينيُّ، الفَقِيهُ الشَّافعِيُّ الأصولِيُّ، شَيخُ الأزهرِ بين سَنتَيْ ١٣٢٢هـ - ١٣٢٤هـ، ومن مؤلَّفاتِه: «فَيْضُ الفَتَّاح على حَواشِي شَرْح تلخيصِ المِفتاح»، تُوفِّي سنة ١٣٢٦هـ، يُنظر: الأعلام للزِّرِكْلِي ٣/ ٣٣٤.

وليس هـذا كلامَ عبدِ القاهـر وحـدَه، وإنَّمـا هـو أيضًـا كلامُ الباقلانِـيِّ الـذي طَـاردَ وُجـودَ أيِّ عِلـمٍ بيننـا وبيـن القـرآنِ لِنُدرِكَ بـه الإعجـاز، وأكَّـد أنَّـه لا يُـدْرِكُ هـذا الإعجـازَ إلا الطَّبْـعُ، وكـذا قـال السَّـكَّاكِيُّ[1].

والمُهـمُّ أن هـذا الطَّبـعَ لا يجـوز لنـا الغفلـةُ عـن تثقيفـه وتقويمـه ودوام تغذيتـه، وهـو لا يُغـذى إلا بشـيءٍ واحـدٍ هـو حُـرُّ الـكلام وفصيحُـه وبَيِّنُـه، وطـولُ المراجعـة فيـه، وبعدمـا يقـول الطَّبـعُ: «هـذا حَسَـنٌ وهـذا أحْسَـنُ» تتقـدَّمُ البلاغـةُ ولهـا رسـالةٌ واحـدةٌ لا تتعدَّاهـا، وهـي التَّغلغـلُ في الشِّـعر الحَسَـن لبيـان الشـيء الـذي كان بـه حَسَـنًا واسـتخراجِه، والتَّغلغـلُ في الشِّـعر الـذي كان أحسـنَ لاسـتخراج الشـيء الـذي بـه كان أحسـنَ.

ويُلاحَـظُ أن الطَّبـعَ الـذي تفـرَّد بالقـول بأن هذا حَسَـنٌ وهذا أحسـنُ هو ذاتُه أكبرُ مُعِينٍ للبلاغـة بعـد حضورهـا، وهـو الـذي بـه تتغلغـلُ البلاغـةُ في مَطَاوِي البنـاء اللُّغـويِّ ومخابِئِـه لتسـتخرجَ الخَبِيءَ الذي به كان الأحسـنُ أحسـنَ.

فالطَّبـعُ أولًا وهـو وحـدَه، والطَّبـعُ ثانيًـا وهـو المرافـقُ للبلاغـة والمُعِيـنُ لهـا علـى أداء رسـالتها، وإذا افتقدنـاه في الخطـوة الأولـى توقَّفنـا، وإذا افتقدنـاه في الخطـوة الثانيـة ضَلَلْنـا.

---

(١) ممَّا قاله الباقِلَّانِيُّ في ذلك:

- «وهـذا طَريـقٌ لا يَتعـذَّر، وبـابٌ لا يَمتَنِـع، وكلٌّ يأخذُ فيه مأخذًا ويَقِفُ منه موقفًا على قَدْرِ ما معـه مـن المعرفـة، وبحَسَـبِ مـا يَمُدُّه مِن الطَّبْع»، إعجاز القرآن، ص ١١٢.
- «فـإذا انضـافَ إلـى التَّـلاؤمِ حُسْـنُ البيـان وصِحَّـةُ البُرهـان في أعلـى الطَّبَقـات ظَهَـر الإعجـازُ لمَـنْ كان جيِّدَ الطَّبْـع وبَصِيـرًا بجواهـر الـكلام»، إعجـاز القـرآن ص ٢٧٠.

وقال السَّكَّاكِيُّ: «واعلمْ أن شأنَ الإعجازِ عجيبٌ؛ يُدْرَكُ ولا يُمكنُ وَصْفُه، كاستقامة الوزن؛ تُدْرَك ولا يُمكنُ وَصْفُها، وكالمَلَاحة، ومُدْرِكُ الإعجازِ عندي هو الذَّوْقُ ليس إلَّا»، مفتاح العلوم، ص ١٩٦.

ذكَرَ عبدُ القاهر ذلك صراحةً وضِمنًا في أوَّل أبواب: التَّقديم، والحَذْف، والفَصْل والوَصْل، وفُروق الخبر، ومن ذلك قولُه في أوَّل باب التَّقديم: «ولا تزال ترى شِعرًا يَروقُك مَسْمَعُه، ويَلْطُفُ لديك مَوْقِعُه، ثمَّ تنظرُ فتَجِدُ سببَ أنْ رَاقَك ولَطُفَ عندَك أنْ قُدِّمَ فيه شيءٌ، وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان»[1] انتهى كلام عبد القاهر، وهو قاطِعٌ في أن الشِّعرَ يَروقُك مَسْمَعُه ويَلْطُفُ لديك مَوْقِعُه والبلاغةُ بمَعْزلٍ عنك، وليس بينك وبين الشِّعر أيُّ وسيط.

مواطن التَّجويد في الشِّعر هي الفنون البلاغية

ولا بُدَّ مِن أنْ نذكُرَ أن مواطن الحُسْنِ في الشِّعر هي ما نُسمِّيها «فنونًا بلاغيَّة»؛ كاللَّفظ الذي حُوِّل من مكانٍ إلى مكان، وكالتَّنكير، والتَّعريف بالألف واللام، ومجيءِ الواو وغيابِها، وكلُّ هذه الفنون رَواكِدُ وسَواكِنُ في الشِّعر، وإذا وجدتَ فنًّا بلاغيًّا واحدًا ليس مِن سَواكِنِ الشِّعر فلا عليك إذا رميتَه في البحر، ولهذا يحرص أهلُ العلم على كلِّ هذه الفنون؛ لأنها هي ماهِيَّاتُ الشِّعر والكلامِ العالي.

وكلُّ كتابٍ ذكرَ المُستحسَنَ من الشِّعر والبيان، وعقَّب على حُسنِه بلُغةٍ غامضةٍ - في الزَّمن قبلَ عبد القاهر - هو من الكُتُب التي لا يجوز السُّكوتُ عنها في دراسة تاريخ هذا العلم ودراسةِ حاضِره أيضًا؛ لأن كلَّ دراسةٍ واعيةٍ للتَّاريخ هي عَطاءٌ للحاضر، قَلَّ هذا العطاء أو كَثُر، والتَّاريخ هو المصباحُ السِّحريُّ الذي يُنِيرُ المستقبل.

(١) دلائل الإعجاز، ص ١٠٦.

ما يدور حولَه كتابُ «الكامل»

والآن أبدأ بعد هذا التَّقديم اللازم في قراءة مقدِّمة كتاب «الكامل»؛ لأن الكُتبَ أجسامٌ والمُقدِّماتِ رؤوسُ هذه الأجسام، وفيها هَواجِسُها وخَواطِرُها وآمالُها وطُمُوحاتُها.

قال أبو العبَّاس: «هذا كتابٌ أَلَّفْناه يَجمَعُ ضُروبًا من الآداب؛ ما بين كلامٍ منثور، وشِعْرٍ مرصوف، ومَثَلٍ سائر، وموعظةٍ بالغة، واختيارٍ من خُطبةٍ شريفةٍ ورسالةٍ بليغة.

والنِّيةُ فيه أن نُفسِّرَ كلَّ ما وقعَ في هذا الكتاب مِن كلامٍ غريبٍ أو معنًى مُسْتَغْلِق، وأن نَشرحَ ما يَعْرِضُ فيه من الإعراب شرحًا وافيًا؛ حتَّى يكونَ هذا الكتابُ بنفسه مكتفيًا، وعن أن يُرجَعَ إلى أحدٍ في تفسيرِه مستغنيًا، وبالله التَّوفيقُ والحَوْلُ والقوَّة»(١) انتهى كلامُه.

وهذا يعني أن أبا العبَّاس يُعِدُّ كتابًا مُكتفيًا بنفسِه للذَّائقة البيانيَّة التي لا يجوز أن تغيبَ عن دَرْس النَّحْو والبلاغة واللُّغة، بل والفقه والتفسير.. إلى آخره، وهذه الذَّائقة - كما قدَّمْنَا - لا غِذاءَ لها إلا هذا البيانُ العالي من الأدب، والحِكَم، والأمثال.. إلى آخر ما ذَكَرَ، ولا يَضمنُ لها البقاءَ والسَّدادَ والعافيةَ إلا هذا البيانُ العالي، وأنَّ الإعرابَ واللُّغةَ تَراهُما في هذا الكتاب وهما يَسْبحانِ في هذه الآداب العاليَة، ويتحوَّلان ليس إلى عِلمٍ يُحفَظُ فحسب، وإنَّما إلى بيانٍ يُذَاقُ وتتلقَّاه العقولُ والقلوبُ بالغِبْطةِ والأَرْيَحِيَّة، وهذا هو الطَّريقُ الذي قدَّم به علماؤنا لُغتَنا إلى

(١) الكامل ١/ ٥.

الأجيال القادمة، ولا بُدَّ مِن ملاحظةِ أنَّ هذا الضَّربَ من التأليف لا يُنتج تقويمَ اللِّسانِ فحسب، وإنْ كان هذا مُهمًّا جدًّا، وإنَّما يَنْقُلُ إلى الجِيل قِيَمًا وأخلاقًا وتاريخًا وحضارة.

وكلُّ ما في اللُّغة من مضامينَ إنسانيةٍ عاليةٍ تُعبِّر عنها كلماتٌ مختصرةٌ؛ مثل: الآداب، والحِكَم، والموعظة البليغة، والخطبة الشريفة. فَرْقٌ بين كُتبٍ تُجرِّدُ اللُّغةَ من هذه المضامين التي تُربِّي النُّفوسَ، وتُكوِّنُ جِيلًا يَعقِلُ حضارتَه وثقافتَه وتاريخَه، وتَهتمُّ فقط بالقواعد التي تُجرِّد اللُّغةَ من كلِّ هذا، وبين كُتبٍ تَحمِلُ كلَّ هذا التَّراثِ الإنسانيِّ في شِعْرِها ونَثرِها والمُختارِ مِن آدابِها وحِكمتِها.

وأعتقد أن هذا هو سِرُّ نجاحِهم في تربية الأجيال، وسِرُّ تخلُّفِنا في هذا؛ لأننا عُنِينا بعلوم العربيَّةِ أكثرَ من عنايتِنا بالعربيَّة نفسِها، وسِرْنا على عكس ما ساروا عليه؛ لأن علمَ العربيَّة كان في «الكامل» تابعًا للعربيَّة نفسِها، وحتَّى لا يَحتاجَ قارئُ الآداب والحِكَم والأمثال إلى من يُفسِّر له كلمةً غريبةً أو إعرابًا مشكلًا.

فَرقٌ بين مَن يُعلِّم اللُّغةَ على أنها نَحْوٌ وبلاغةٌ ومَن يُعلِّم اللُّغةَ على أنها تاريخٌ وحضارةٌ وثقافةٌ وتجربةُ أجيالٍ خَلَتْ، فيها صوابُهم وخَطؤهم، وفيها آدابُهم وقِيَمُهم، ولم نَعرِفْ أجيالًا تلقَّتْ هذه العربيةَ الشَّريفةَ بالشَّكوى والتبرُّم إلا أجيالَنا، لمَّا قدَّمناها لهم في لُغةٍ خَشِنةٍ وقواعدَ قَطَعْناها عن أغصانِها التي أثمرتْها.

قلتُ إن كتاب «الكامل» زاخِرٌ بأمرين لهما شأنٌ أيُّ شأنٍ في تاريخ البلاغة؛ **الأوَّل**: الشِّعرُ الحَسَنُ المُختارُ الذي هو أوَّلُ خُطوةٍ في الدَّرس البلاغي، وهو منه بمنزلةِ البَسْمَلةِ في القراءة. **والثَّاني**: كلامُ أبي العبَّاس في حُسْنِ الحَسَن، وهو مِن صُلْبِ المُعجَمِ الغامض الذي هو كالرَّمْز والإيماء، كما قال عبد القاهر، وهذان يَجعلان السُّكوتَ عن هذا الكتاب في التَّعريفِ بجُذور الدِّراسة البلاغيَّة سُكوتًا لا يَحْسُنُ السُّكوتُ عليه.

وشَيءٌ آخرُ في كتاب «الكامل»؛ هو أن أبا العبَّاس كانت ذاكِرَتُه كأنها مُدوَّنةٌ جليلةٌ لشِعْر العربيَّة، فكان إذا ذَكَرَ بيتًا في معنًى تَوَافَتْ عليه أبياتٌ كثيرةٌ في هذا المعنى، وهذه إحدى ضَوَالِّ الدَّارِس البلاغي؛ لأنه ليس في البلاغةِ أكرمُ من أن يكون بين يديك معنًى واحدٌ تواترتْ عليه الصُّور، وكلُّ صُورةٍ هي صَنْعةُ شاعر، وتحليلُ الصُّورِ والمقارنةُ بينها هو تحليلٌ لصَنْعَةِ الشِّعر، ولو قلتَ: إن البلاغةَ ليست إلا دِراسةً لصَنْعَةِ صاحب البيان في بيانه، لم تكن مخطئًا، وكان عبدُ القاهر؛ صاحِبُ هذا العلم، شديدَ الحَفاوة بهذا الباب، ويرى أن الذين يَجْهَلُونه قد جَهِلُوا البلاغةَ كلَّها، وعَقَدَ له صفحاتٍ كلُّها أبياتٌ من الشِّعْر حول مَعانٍ متشابهة، وأغرى ببَحْثِ ما بينها من تقارُبٍ وتباعُد.

ولو رَجَعْنا إلى كتاب «الكامل» وأخرجنا منه هذه الأبوابَ، ودَرَسْناها بابًا بابًا دراسةً يَقِظَةً، لكان لنا من كتاب «الكامل» جملةٌ من الكُتب هي مِن نَفْسِ مصادر الدِّراسة البلاغيَّة، ولستُ في حاجةٍ -أيُّها القارئُ- إلى أن أُنبِّهَ إلى أن هذا مِن المسكوت عنه.

علوم العرب في شعرها

ثمَّ إن أبا العبَّاس يَفتحُ في الشِّعر بابًا آخرَ هو من أهمِّ أبواب المسكوت عنه، وإن كانتْ لا تَدخُلُ في علم البلاغة، وهو بابُ عِلمِ العرب الذي دَلُّوا عليه في شِعْرهم، وشِعرُهم هذا هو العِلمُ الذي لم يكن لهم عِلمٌ سِواه، كما قال سيدُنا عُمَرُ رَضِّيَاللهُعَنهُ[1]، وعجيبٌ جدًّا أننا تركنا هذا البابَ مُغلقًا مع أن سيدَنا عُمرَ نبَّه إليه، وفَتحَ أبو العبَّاس بابَه.

إذا ذَكرَ أبو العبَّاس بيتًا من الشِّعر فيه ذِكْرُ رِيحٍ من الرِّياح أتبعَه بغيره، ثم أخذ يستخرج من الشِّعر أنواعَ الرِّياح وجهاتِ هُبوبِها وأزمنةَ هُبوبِها، وأنَّ منها المبشِّراتِ بالمَطَر والخِصْب، ومنها المُنذِراتِ بالجَفَاف والقَحْط، وما يَتْبعُ ذلك من أنواع السَّحاب، وأنَّ منها كذا ومنها كذا، حتَّى يَدخلَ بك في عِلم الأنواء وعقائد العرب في الأنواء، وحتَّى تراك أمام معلوماتٍ لا يجوز أن تُتْركَ هكذا للصُّدفة، وإنَّما تُستقصَى في الشِّعر وتُصنَّفُ وتُقدَّمُ من حيث هي بابٌ من أبواب علم هذه الأمَّة في جاهليَّتِها.

وقُلْ مِثلَ ذلك في الخيل وما تُمدَحُ به وما تُعابُ به وأوصافِها حتَّى إنك لتَرَى نفسَك أمام معلوماتٍ عجيبةٍ عن حوافر الخيلِ والفَرقِ بين حوافر الجياد وحوافر غير الجياد، وقُلْ مِثلَ ذلك في الإبل، وأوصافِها، وعَراقَتِها.. إلى آخره.

وقديمًا كتبَ الزمخشريُّ كتاب «الجبال والأمكنة»، وهو ليس في الجغرافيا، وإنَّما هو في الأدب، وهذا يبدو غريبًا وليس غريبًا؛ لأنه ذَكرَ

(١) نَصُّ مَقُولَةِ سيدِنا عُمَرَ كما أوردَها ابنُ سَلَّام وابنُ جنِّي: «كان الشِّعرُ عِلمَ قومٍ لم يكنْ لهم علمٌ أصحُّ منه»، طَبَقات فُحول الشُّعراء ١/ ٢٤، والخصائص ١/ ٣٨٧.

الجبالَ التي كَثُرَ ذِكرُها في الشِّعر، وكأنه رَحِمَهُ اللهُ كان يُبشِّر بما يُمكن أن يُسمَّى: «الجغرافيا الأدبيَّة» التي قَلَّما تَجِدُها عند أمَّة الشِّعر التي هي أيضًا أمَّةُ البداوة.

المُهمُّ جودةُ الكلام وليس المتكلِّم

كان علماؤنا يستحسنون القولَ لحُسْنِه هُو مع صَرْفِ النَّظر عن قائله، ويستهجنون القولَ لهُجْنَةٍ فيه مع صَرْفِ النَّظر عن قائله، ولذلك كانوا يأخذون الحَسَنَ ممَّن يرضَوْنه وممَّن لا يرضَوْنه؛ فأخذوا مِن حِكْمةِ الفُرْسِ والهنود واليونان، كما أخذ المُعتزِلةُ من الأشاعرة، وأخذ الأشاعرةُ من المُعتزِلة، وأخذ أهلُ السُّنَّة من الشِّيعة، وأخذ الشِّيعةُ من أهل السُّنَّة، والأصلُ في كلِّ ذلك أن الحِكمةَ ضَالَّةُ المؤمن، أنَّى وجدها أخذها، وقد بالَغَ الناسُ في هذا المعنى وقالوا: «خُذُوا الحكمةَ مِن أفواه المجانين».

والكُتبُ مشحونةٌ بالكلام الجيِّد الصَّادرِ عن غير الجيِّدين، ولهذا لا تَجِدُ غرابةً إذا وجدتَ في كتاب «الكامل» شِعرًا كثيرًا وأدبًا كثيرًا نقله أبو العبَّاس عن أمثال: عِمْرانَ بنِ حِطَّان، وهو من رؤوس الخوارج، ومِثلُه نَافِعُ بنُ الأزرق، وقَطَرِيُّ بنُ الفُجَاءة.. وغيرُهم، ولم يَكن يَتوقَّعُ أن يأتِيَ زمانٌ يُلامُ فيه على ذكر «الخوارج»، وإنَّما كان يَتوقَّعُ أن يَطلُبَ منه القارئُ مزيدًا من أخبارهم؛ لأن هذا المزيدَ مِن حَقِّ العلم والتاريخ، فكان يَعتذِرُ عن أنه لم يُشْبِعِ الكلامَ في أخبارهم ويقول: «وأخبارُ الخَوارِج كثيرةٌ طويلةٌ، وليس كتابُنا هذا مُفرَدًا لهم، ولكنَّا

نَذكُرُ مِن أمورهم ما فيه معنًى وأدبٌ، أو شِعرٌ مُسْتَطْرَف، أو كلامٌ من خُطبةٍ معروفةٍ مُختارة»(١)، وكان علماؤنا يَذكرون من آداب الأمم ما فيه معنًى وأدبٌ وشِعرٌ مُستطرَف، وقد ذكرَ عبدُ القاهر الجُرجانيّ أبياتًا جيِّدةً لأحد الخوارج في موقفٍ نبيلٍ لهذا الخَارجيِّ، وكان قد أسَرَه الحَجَّاجُ؛ لأنه كان يُقاتِلُه، فلمَّا قُدِّم مع الأسرى لقَتْلِه نَظرَ إليه الحَجَّاجُ وذكَرَ يدًا له كانت على الحَجَّاجِ فعفا عنه، ثم رَجَع إلى قومه، وبعد مُدَّة أراد قَطَرِيُّ بنُ الفُجاءة - وكان مِن شياطين الخوارج - أن يُعاوِدَ قتالَ الحَجَّاج فنَدبَ هذا الرَّجُلَ للخُروج إلى قتال الحَجَّاج، فرفض الرَّجلُ، وقال أبياتًا جيِّدةً أكَّد فيها موقفًا جيدًا، والأبيات هي: [من الكامل]

أَأُقَاتِلُ الْحَجَّاجَ عَنْ سُلْطَانِهِ ... بِيَدٍ تُقِرُّ بِأَنَّهَا مَوْلَاتُهُ؟
مَاذَا أَقُولُ إِذَا وَقَفْتُ إِزَاءَهُ ... فِي الصَّفِّ وَاحْتَجَّتْ لَهُ فَعَلَاتُهُ؟
وَتَحَدَّثَ الْأَقْوَامُ أَنَّ صَنَائِعًا ... غُرِسَتْ لَدَيَّ فَحَنْظَلَتْ نَخَلَاتُهُ؟(٢)

وقد وقفَ عبدُ القاهر عند بلاغةِ قولِه: «وَاحْتَجَّتْ لَهُ فَعَلَاتُهُ» وبَراعَتِه، وذَكَر أنه معنًى لم يَقُلْ فيه أحدٌ أفضلَ منه(٣).

---

(١) الكامل ٣/ ١٧٩.

(٢) تُنسَبُ الأبياتُ إلى عِمْرَانَ بنِ حِطَّان، وقد نَقَضَ ذلك الدُّكتور إحسان عبَّاس؛ فقال: «إنَّ عِمْرانَ هَرَبَ مِن الحجَّاج وظلَّ مُختفيًا في عُمَانَ حتى مات الحَجَّاجُ»، وذهب إلى أنَّ هذه الأبياتَ لا تَتَّفِقُ مع رُوحِ عِمْرانَ وسُلوكِه، واستَصْوَبَ ما ذكرَه ابنُ عساكِر مِنْ أنَّها لبعض الخوارجِ مِن أصحابِ قَطَرِيِّ بنِ الفُجَاءة، يُنظر: شعر الخوارج، ص ١٩٨، هامش ١.

(٣) قال الإمامُ عبدُ القاهر: «ومَنْ هذا الذي يَنظُرُ إلى بَيْتِ الخَارجِيِّ وبيتِ أبي تمَّام فلا يَعْلَمُ أنَّ صُورةَ المعنى في ذلك غيرُ صُورته في هذا؟ كيفَ والخَارجِيُّ يقول: (وَاحْتَجَّتْ لَهُ فَعَلَاتُهُ)، ويقول أبو تمَّام: (إِذْنُ لَهَجَانِي عَنْهُ مَعْرُوفُهُ عِنْدِي)، ومتى كان (احتجَّ) و(هَجَا) واحدًا في المعنى؟»، دلائل الإعجاز، ص ٥٠٧.

وهذا هو الموقفُ العلميُّ والعقليُّ الصَّحيح، وإذا عَلَتْ أصواتُ مَن لا يَعْلم فلا يجوز أن تَسْكُتَ أصواتُ مَن يَعْلم؛ لأن هذا ضارٌّ جدًّا ويؤدِّي إلى مَفْسَدةٍ كبيرة.

ومِن لطيفِ ذِكْرِ الخوارجِ أنَّ سيدَنا معاويةَ كاتِبَ وَحْيِ رسولِ الله ﷺ لمَّا عَلِمَ بخُروج الخوارج لقتاله طلبَ من سيِّدنا الحَسَنِ بنِ عليٍّ - كرَّم الله وجهَه - أن يتولَّى قتالَهم، فقال له الحَسَن: «والله لقد كَفَفْتُ عنك لحَقْنِ دماء المسلمين، وما أحسَبُ أنَّ ذلك يعني أفأقاتل عنك قومًا أنت أَوْلَى بالقِتَالِ منهم؟»(١).

وقد نَشرتِ المرحومة عائشة عبد الرحمن «مسائل نافع بن الأزرق» التي سأل فيها سيِّدَنا عبد الله بن عبَّاس. و«نافِعٌ» هذا رأسُ فرقة من الخوارج تُسمَّى «الأزارِقَة»؛ نِسبةً إليه، وهناك فرقةٌ أخرى تُسمَّى «الصُّفْرِيَّة»؛ نِسبةً إلى صُفْرةِ ألوانهم من كثرة العبادة، وفِرقةٌ أخرى تُسمَّى «الإباضِيَّة»، وهي أقربُ الفِرَق إلى فِكْر الجماعة، هكذا قال أبو العبَّاس(٢)، وهم أهلُ «عُمَان»، وكثيرٌ منهم في شمال أفريقيا، وهم جزءٌ من نسيج الأمَّة، يعيشون مع الأمَّة في سلامٍ ومحبَّة، وعلى السَّادة الذين لا يعرفون التاريخَ أن يَسكُتوا عمَّا لا يعلمون، ولو سَكتَ مَن لا يَعْلَم لاستراح النَّاس.

والغريبُ أنني أسمع الذين لا يُحْسِنُون نُطْقَ أسماء الرِّجال يقومون ويَقْعدون بالهجوم على بعض الفِرَق، وقد انتهى زمانُهم وتغيَّرت الأحوال، ويا بُعْدَ ما بين خوارجِ زماننا وخوارجِ عبد الله بن إبَاض. رَحِمَ

---

(١) يُنظر: الكامل في التاريخ ٣/ ٩.

(٢) يُنظر: الكامل ٣/ ٢٠١.

الله أبا العبَّاس، ورَحِمَ الله عبدَ القاهر، ورَحِمَ الله عائشة عبد الرحمن، وألحقَنا بالصَّالحين مِن علمائنا كَرامَةَ نَفْسٍ وقُرَّةَ عَيْن.

خطأ تعليم اللُّغة وهي مُفرَّغة من مضامينها

أشرتُ إلى أنَّ أبا العبَّاس لم يكن يُعلِّم الذين يكتب لهم اللُّغةَ والنَّحوَ والشِّعرَ والآدابَ والحِكَمَ فحَسْب، وإنَّما كان يجعل ذلك سبيلًا إلى إعداد أجيالٍ تَحْفَظُ ثقافةَ الأمَّة وتاريخَها، ويُكوِّن هذه الأجيالَ من خلال التجارِب الإنسانيَّة الحيَّة التي أودعَتْها الأمَّةُ في آدابِها وحِكْمتِها وبيانِها المَنثُور وشِعْرِها المَرصُوف، والكلُّ يَعْلَمُ سُلطانَ البيان على النَّفْس الإنسانيَّة، وقد أفرد ابنُ رَشِيقٍ سُلطانَ الشِّعر على النَّفْس الإنسانيَّة بالحديث(١)، وكُلُّنا يَحفَظُ القولَ المنسوبَ إلى سيِّدنا معاوية، وأنَّه حدَّثَتْه نفسُه بالفِرَار حين حَمِيَ الوَطِيسُ، وما أمسكَه إلا قولُ الشَّاعر: [من الوافر]

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ ... مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي(٢)

---

(١) لعلَّ شيخَنا يُريدُ بابَ «فَضْل الشِّعْر» الذي صدَّر به ابنُ رَشِيقٍ كتابَه، يُنظر: العُمدَة في محاسِنِ الشِّعرِ وآدابِه ونَقدِه ١/ ١٩ - ٢٧.

(٢) البيتُ لعَمْرو بنِ الإطنابَة، وخَبَرُ سيِّدِنا مُعاويَةَ أوردَه أبو العبَّاس؛ قال: ويُروَى عن مُعاوِيَةَ أنَّه قال: اجعلوا الشِّعرَ أكثرَ هَمِّكم وأكثرَ آدابِكم؛ فإنَّ فيه مآثِرَ أسلافِكم ومَواضِعَ إرشادِكم؛ فلقد رأيتُني يومَ الهَرِيرِ وقد عَزَمْتُ على الفِرار، فما يَردُّني إلا قولُ ابنِ الإطنابةِ الأنصاريِّ: [من الوافر]

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بَلَائِي ... وَأَخْذِي الْحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وَإِجْشَامِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي ... وَضَرْبِي هَامَةَ الْبَطَلِ الْمُشِيحِ
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ ... مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

يُنظر: الكامل ٤/ ٥٧.

قلتُ هذا لأُذكِّرَ بأثرِ الشِّعْر المُختار والخُطَبِ الشَّريفةِ والرِّسالةِ البليغةِ على تربية الجيل وإعدادِه، وأنَّ عَرْضَنا للُّغةِ في دراسة النَّحْوِ والبلاغةِ وإبعادَ كلِّ هذا العطاء الرُّوحِيِّ الذي لا يُقدِّمه للجيل شيءٌ كما يُقدِّمه الشِّعرُ والبيان- أقولُ: إبعادُ هذا من الأخطاء الفادِحَة، ويَقِيني أن كلَّ المنهجِ الذي يَدْرُسُه أبناؤنا في مدارسنا وجامعاتنا ليس فيه مادةٌ تَدخُلُ في تكوينِ الإنسان وتربيتِه وإعدادِه كما تَدخُلُ مادَّةُ اللُّغة العربيَّة على الوجه الذي ذكره أبو العبَّاس.

وإعدادُ الجِيلِ ليس نافلة، والذين يكتبون للجِيل ليسوا مُتفضِّلين، وإنَّما هو واجب؛ لأنهم حُرَّاسُ الأرض والعِرْض والدِّين والتَّاريخ، وأيُّ تَهاوُنٍ في هذا الإعداد إنَّما هو تَهاوُنٌ في حِراسة الأرض والعِرْض والدِّين والتَّاريخ، وهذا ممَّا لا يجوزُ أن يَغِيبَ عن كلِّ من يؤدِّي درسًا أو يَكتب كِتابًا أو يَسُوسُ أمرًا، كما لا يجوزُ أن يَغِيبَ خَطَرُ أفعى صهيون التي على حدودنا الشرقيَّة، وأنَّ التَّهاوُنَ في إعدادِ مَنْ يواجهها هو بمنزلة الخِيانة العُظمى، وأخشى أن يكون خَرابُ التعليم داخلًا في هذا الباب مِن حيث نَدرِي أو لا نَدرِي، هما سواء؛ لأن مِثْلَ هذا يُقال فيه: [من الكامل]

إِنْ كُنْتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ ... أَوْ كُنْتَ تَدْرِي فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ[1]

---

(١) البيتُ في ديوانِ صَفِيِّ الدِّينِ الحِلِّيِّ، ص ٦٥، مِن قصيدةٍ له يُحرِّضُ فيها السُّلطانَ الصَّالحَ شَمْسَ الدِّين على خَلاصِ مَالِه مِن لُصوصٍ نَقَبُوا دارَه وأخذوا ما بها، واحْتَمَوْا بنائبٍ له فحَمَاهم واستخدَمَهُم لَدَيْه.

التشبيه في كتاب «الكامل»

الآنَ أبدأُ بابَ «التَّشبيه»، وأوَّلُ ما أقول فيه هو تَوافُقُ شواهدِه مع بقيَّة شِعْر الكتاب؛ لأن كلَّ هذه الشَّواهدِ فيها بعدَ كلِّ الذي ذكرتُه شيءٌ آخر؛ هو أنَّك يَغْمُرُك الإحساسُ وأنت تُراجِعُها بأن أبا العبَّاس لا يُعلِّمُك هذه الشَّواهدَ بكلِّ ما تَحْمِلُه من مَعانٍ وقِيَم، وإنَّما يُسْكِنُ كلَّ هذا في ضمير نفسِك، والبيانُ إذا سَكنَ في ضمير النَّفس حرَّك فيها طاقاتِها البيانيَّةَ الهاجِعةَ فيها والدَّاخِلةَ في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]؛ لأنه ليس المرادُ بيانَ لُغةٍ مُعيَّنة، وإنَّما هَيَّأه - سُبحانَه - بقُدرتِه لأن يكون ذا بيان، ومعاني الشِّعْر تُولَدُ نظائرُها في النَّفْس، ومباني الشِّعْر التي هي طرائقُ الإبانة تُلهِمُ النَّفسَ وتأخذُ بيدِها على مَدْرَجَةِ القُدرة على الإبانة.

وكذلك يُقال في التَّشبيه؛ ترى كثرةَ هذه الشَّواهد تَبعثُ في النَّفسِ رغبةً في أن تَزيدَ المعاني بيانًا؛ فتُلْحِقُ المعنى المُجرَّدَ بالصُّورةِ التي هي أوضحُ وأبيَنُ، وهكذا تَجِدُ في هذا الكتاب جانبًا آخرَ؛ هو أنه لا يُعلِّمُنا العلمَ لنُحصِّلَه ونُعلِّمَه ونتكلمَ به، وإنَّما يُهيِّئنا أيضًا لإنتاجه، وفَرقٌ بين مَن يُحصِّلُ العلمَ ومَن يَتهيَّأ لإنتاج العلم، وهذا الثَّاني هو طريقُ الإضافة، وطريقُ صناعةِ إنسانٍ يُنتِجُ معرفة، ونِعِمَّا هُو، وهذا مِن أنْفَسِ النَّفِيسِ المسكوتِ عنه.

فَرقٌ بين مَن يَعيشُ حارسًا يَحْرُسُ بناءَ المعرفة، وبين مَن يَضَعُ لَبِنةً في بناء المعرفة، أوائلُنا علَّموا أجيالَهم كيف يَضَعُون اللَّبِنَة، ونحن نُعلِّم أجيالَنا كيف يَحرُسُون اللَّبِنَة.

لم أقرأ في الكُتب التي كُتِبَتْ قبلَ أبي العبَّاس، ولا في الكُتب التي كُتِبَتْ في زمانِ أبي العبَّاس، صُورًا للتَّشبيه أكثرَ من الصُّورِ التي في كتاب «الكامل»، وأكاد أقولُ: «ولا في الكُتُبِ التي كُتِبَتْ بعدَه»؛ لأنَّها وإنْ كانت زاخرةً بالدِّراسة فإنَّ كتاب «الكامل» يظلُّ أكثرَ زُخْرًا منها بالشَّواهد، والذي في باب «التَّشبيه» ليس كلَّ ما في كتاب «الكامل» من التَّشبيه؛ لأنه وهو يَختار الشِّعرَ المُستحْسَنَ جاء كثيرٌ منه من صُور التَّشبيه؛ لأنه أكثرُ كلام العرب، وما دُمتَ في كلام العرب فأنت مع التَّشبيه، أردتَه أم لم تُرِدْه.

يقول أبو العبَّاس في أول باب التَّشبيه: «وهذا بابٌ طريفٌ نَصِلُ به هذا البابَ الجامِعَ الذي ذَكَرْنَاه، وهو بعضُ ما مَرَّ للعَربِ من التَّشبيه المُصِيبِ، وللمُحْدَثِين بعدَهم»[1] انتهى كلامُه.

وهذا يَعنِي أنَّ هذا البابَ، الذي هو أوسعُ ما قرأْنَا، وُصْلَةٌ يَصِلُ بها أبو العبَّاس هذا البابَ الجامع، ولهذا قلتُ إنه أوسعُ أبواب التَّشبيه في الكُتبِ قبلَه وبعدَه، ولهذا أيضًا قلتُ إنَّ أبا العبَّاس بهذه السَّعَةِ يَطبَعُ هذا الطريقَ البيانِيَّ في نفوسِنا ويَزْرَعُه فيها؛ لأن هذا ليس طريقَ مَنْ يُعلِّمُ فقط، وإنَّما هو طريقُ مَنْ يَجعلُ المعرفةَ وسيلةَ تغييرٍ في النَّفس وتَثقيفٍ للطَّبْع، ويَجعَلُها أيضًا دُرْبةً ومِرَانًا.

المُبرِّد صِنْوُ الجاحظ

كان أبو العبَّاس صِنْوَ الجاحظ، وكان صديقًا له، وكان يُحدِّثُنا بما حدَّثَه به الجاحظ، وكان «الكامل» صِنْوًا لـ«البيان والتَّبيين»؛ كلاهما

(١) الكامل ٣/ ٢٥.

يَروِي جيِّدَ الشِّعر، ثم يَنْزِعُ الجاحظُ نحوَ الكتابةِ ويكونُ له مذهبٌ في البيانِ ومدرسةٌ، ويَنْزِعُ أبو العبَّاس نحو اللُّغةِ والإعرابِ ويَصِيرُ أحدَ شُيوخ المذهب البَصْرِي، ويَظهر عبد القاهر بعد زَمَنٍ فيُكثِرُ من ذِكْرِ الجاحظ في الدَّرس البلاغي، ويكاد يُغْفِلُ أبا العبَّاس، ويُوسِّعُ عبد القاهر مكانَ الجاحظِ ومكانتَه في تاريخ البلاغة، ويظلُّ أبو العبَّاس مسكوتًا عنه، ويَتَّسِعُ ذِكرُ كتاب «البيان والتَّبيين» ويَضِيقُ ذِكرُ صِنْوِه الذي هو «الكامل»، وليس هذا غَبْنًا لأبي العبَّاس ولكتاب «الكامل»، وإنَّما هو غَبْنٌ للبلاغة ولتاريخها.

حفاوة المُبرِّد بامرئ القَيس

بدأ أبو العبَّاس الكلامَ في «التَّشبيه» ببيت امرئ القَيْس المشهور: [من الطويل]

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا   لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَّابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

وكان أبو العبَّاس شديدَ الحفاوة بامرئ القَيْس، وكثيرًا ما يَبدأُ بشِعْرِه، ويَنْقُلُ إلينا وصفَ أهلِ الأدبِ له بأنه «سَيِّد الشُّعراء»، وكلُّ هذا حقٌّ ولا يجوز غيرُه، ومَن يَعرِفُون الشِّعرَ لا يقولون إلا هذا، ولو بُعِثَ كلُّ شُعراء العربيَّة وسُئلوا سؤالًا واحدًا: «مَنْ سَيِّدُكم؟» لقالوا: «امرؤ القَيْس».

ويقول أبو العبَّاس في هذا البيت: «إنَّ الناسَ أجمعُوا على حُسْنِه؛ لأنه شَبَّه شيئًا في حالتَيْن مختلفتَيْن بشيئين مختلفَيْن»[1]. ولَحَظَ أبو العبَّاس أن

---

(١) يُنظر: الكامل ٣/ ٢٥.

تأليفَ المعاني في البيت وترتيبَها جاء على طريقة العَرَب الفُصحاء الذين لهم فِطْنةٌ وفيهم لَقَانَة؛ لأن الشِّعرَ لم يَقْرِن العُنَّابَ بالرَّطْبِ والحَشَفَ البالِيَ باليابِس، وإنَّما ترك ذلك لذكاء السَّامع.

طرائق الفُصحاء وطرائق المُولَّدين

وكان هؤلاء الفُصحَاءُ يَروْنَ أن ما زاد على الإفهام يُعدُّ عِيًّا وتكرارًا. قال أبو العبَّاس: «العَربِيُّ الفَصِيحُ الفَطِنُ اللَّقِنُ يَرمِي بالقول: مفهومًا، ويرى ما بعدَ ذلك من التَّكرير عِيًّا»(١)، وهذه العبارةُ قريبةٌ جدًّا مِن عبارة بشَّارِ بن بُرْدٍ لمَّا قال: [من الخفيف]

بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الْهَجِيرِ ... إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

فقِيلَ له: لماذا لم تَقُلْ: «بَكِّرَا فالنَّجاحُ في التَّبكير»؟، فقال: «إنَّما بَنَيْتُها أعرابيةً، ولو قلتُ: (بَكِّرَا فالنَّجاحُ في التَّبكير) لكان أَشْبَهَ بكلام المُولَّدِين»(٢).

و«الأعرابيَّةُ» في كلام بشَّارٍ هي التي قالها أبو العبَّاس: «العَربِيُّ الفَصِيحُ الفَطِنُ اللَّقِنُ يَرمِي بالقول مفهومًا، ويرى ما بعدَ ذلك من التَّكرير عِيًّا». والتَّكرارُ هو الأشْبَهُ بكلام المُولَّدين في عبارة بشَّار، والعربيُّ الفَطِنُ اللَّقِنُ يَجعلُ بعضَ ما يَنطِقُ به مَنْبَهةً إلى معنًى يريده ولا يَنطِقُ به؛ فقولُ بشَّار: «إنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ» مَنْبَهةٌ إلى «بَكِّرَا»، وعِلْمُ السَّامِع بأنَّ «العُنَّابَ» هو الأشْبَهُ بـ«الرَّطْب» و«الحَشَفَ البالِيَ» أشْبَهُ بـ«اليابِس» أَغْنَى الفَصِيحَ اللَّقِنَ عن أن يقولَ: «الرَّطْبُ عُنَّابٌ، واليابِسُ حَشَفٌ بَالٍ».

---

(١) الكامل ٣/ ٢٥.

(٢) الذي سأل بشَّارًا هو خَلَفٌ الأحْمَرُ، والخَبرُ بتمامِه في: دلائل الإعجاز، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

ورأيتُ هذا الطَّريقَ يَكثُرُ في كلام رسول الله ﷺ وأنا أشرَحُ أحاديثَ مِن صَحيح مُسْلِم[١]، ونبَّهتُ إليه؛ لأن الفَرقَ بين الأعرابيَّةِ وكلامِ المولَّدِين في كلام بشَّارٍ شَغَلَني كثيرًا؛ لأنه مِفتاحُ دراسة تطوُّر أساليبِ العربيَّة، وهو جانبٌ صَعبٌ ومُمتِعٌ ومَسكوتٌ عنه، وكلُّ الذي قِيلَ فيه مِن التَّعميمِ المُبهَم.

وذكر أبو العبَّاس قولَ امرئ القيس: [من الطويل]

إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ ... تَعَرُّضَ أَثْنَاءِ الْوِشَاحِ الْمُفَصَّلِ

وعقَّب عليه بقوله: «وقد أكثَرُوا في الثُّريَّا فلم يأتوا بما يُقارِب هذا المعنى ولا بما يُقارِب سُهولةَ هذه الألفاظ»[٢].

وقد ذكر عبد القاهر هذا البيت، وبيَّن سِرَّ تفوُّقه، ووَضْعُ كلام عبد القاهر البيِّن الواضح بإزاء كلام أبي العبَّاس المُبهَم الغامِض يُبيِّن لنا أهمَّ ما يجبُ أن نُبيِّنَه، وهو تطوُّرُ الفكرة البلاغيَّة التي كانت رَمزًا وإيماءً عند سَلَفِ عبد القاهر، ثم صارت عِلمًا يُنصُّ عليه ويُشارُ إليه عند عبد القاهر، ولا شكَّ أن هذا العملَ الجليلَ الذي كان يجب أن يكون شاغلًا لأقلام العلماء مَسكوتٌ عنه سُكوتًا مُطبِقًا.

ورَاجِعْ كلمةَ أبي العبَّاس مرةً ثانية، وأنَّ الناسَ لم يأتوا بما يُقارِب هذا المعنى ولا بما يُقارِب سُهولةَ هذه الألفاظ تَجِدْ هذه الكلمةَ ليس فيها

(١) أخرج شَيخُنا شَرْحَه هذا في كتابٍ سمَّاه: «شَرْحُ أحادِيثَ مِن صَحِيح مُسْلِمٍ - دراسةٌ في سَمْتِ الكلام الأوَّل»، وقد صَدَرَتْ طبعتُه الأولى سنة ١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م.
(٢) الكامل ٣/ ٢٦.

وصفٌ للمعنى، وليس فيها وصفٌ للألفاظ، وإنَّما بَقِيَ جَلالُ المعنى في نَفْسِ قائل هذه الكلمة وهو أبو العبَّاس، وسُهولةُ هذه الألفاظ أيضًا بَقِيتْ وصفًا قائمًا في نَفْسِ أبي العبَّاس. وتستطيع أن تقولَ إن هذا الكلامَ داخلٌ في وَصْفِ عبد القاهر لكلامِ سَلَفِه، ليس في بابِ الرَّمْزِ والإيماء وإنَّما في باب التَّنْبيه إلى مكان الخَبِيءِ ليُبْحَثَ عنه فيُخْرَجَ. والذي في نَفْسِ أبي العبَّاس هو في الشِّعر، وعلينا أن نبحثَ في الشِّعرِ عن هذين الخبيئين: المعنى الذي لم يُقارَب، وسُهولة الألفاظ التي لم تُقارَب؛ فماذا فَعل عبد القاهر؟

عبد القاهر يشرح رموز المُبرِّد

ذَكَر عبد القاهر هذا البيتَ وهو يتحدَّث عن أسباب تأثير التَّمثيل، مع أن البيتَ ليس من التَّمثيلِ عند عبد القاهر، ولكنَّ السِّياقَ الذي ذكر البيتَ فيه هو سَببُ تأثير التَّشبيه بِقِسْمَيْه، وهذا السَّبَبُ هو ما يُبْنَى عليه التَّشبيه مِن التَّفصيل؛ لأن الشَّاعرَ إذا فَصَّلَ في التَّشبيه رَاجَعَ ودَقَّقَ في أحوال المُشبَّه به، وانتقى منها ما هو أشْبَهُ بالمُشبَّه، وهو في هذه المراجعة قد يُبْعِدُ بعضَ صِفاتِ المُشبَّه به؛ ليُحقِّقَ الشَّبَه، وقد يَعْتَبِرُها مُجْتَمِعةً؛ لأن التَّشبيه لا يَتحقَّقُ إلا باجتماعها، والبيتُ من هذا النَّوع الثَّاني؛ لأنَّ تَشبيهَ الثُّرَيَّا بالوِشَاحِ المُفصَّل لا يَتِمُّ إلا إذا اعتبرْنا كلَّ أحوالِ الخَرَزِ الذي في الوِشَاح واجتماعَها على الهيئة المخصوصة، فلو فَرَضْنا أن بعضَ خَرَزِ الوِشَاح لم يَجتمِعْ على هذه الهيئة لسَقَطَ التَّشبيه. ومعنى «تَعَرَّضَت الثُّرَيَّا»: مَالَتْ نَحوَ المَغِيب.

قال عبد القاهر: «وقد اعتُبِرَ فيه هيئةُ التَّفصِيل في الوِشَاح، والشَّكْلُ الذي يكون عليه الخَرَزُ المنظومُ في الوِشَاح، فصار اعتبارُ التَّفصيلِ أعجبَ تَفصيلٍ في التَّشبيه»(١) انتهى كلام عبد القاهر.

ورَاجِعْ قولَه: «أعجبَ تَفصيلٍ في التَّشبيه»؛ لأنه يُوشِكُ أن يكونَ معنى «أنَّه لم يُقارَب»، وأن هذا التَّفصيلَ العَجِيبَ هو الخَبِيءُ في كلام أبي العبَّاس، ثم رَاجِعْ هذا مرةً ثانيةً لتتعلَّمَ كيف قرأ اللاحقُ كلامَ السَّابق، ولو اكتفى عبدُ القاهر بترديد عبارة أبي العبَّاس، وأن النَّاسَ لم يُقارِبوا هذا المعنى ولم يُقارِبوا سُهولةَ لفظِه - لكان حالُ عبد القاهر كحالِنا، ولكان واحدًا مِن حُرَّاس المعرفة وليس من بُناتِها الذين علَّمَهم سيدُنا ﷺ أن يقولَ كلُّ واحدٍ منهم: «وأنا اللَّبِنَة»، كما قال ﷺ(٢).

وحُرَّاسُ المعرفةِ كِرامٌ، كِرامٌ بلا رَيْب، ولكنَّ هناك فَرقًا بين من يُحاوِلُ أن يَخْطُوَ إلى الأمام ولو بمقدار إصْبَع، ومَنْ هو رَاضٍ بأن يتحرَّك في مَحلِّه مِن غير أن يتجاوزَ مِقدارَ إصْبَع.

عنايةُ المُبرِّد بالتشبيه الممتدّ

اهتمَّ أبو العبَّاس بضَرْبٍ مِن التَّشبيه هو كثيرٌ في الشِّعر، وخصوصًا الشِّعر الجاهليّ، وكثيرٌ في الكتابِ العزيز، وكثيرٌ في كلام سيِّدِنا رسول الله ﷺ، وكثيرٌ أيضًا في كِتابَةِ الكُتَّاب، وقرأتُ صورًا منه في أدبِ ابن

---

(١) أسرار البلاغة، ص ١٦٨.

(٢) سبق تخريجه.

المُقفَّع[١]، خصوصًا في أدبِه الذي تَرجَمَه من الفارسِيَّة، وقرأتُ صورًا كثيرةً منه على لسان «بَيْدَبَا» الفيلسوفِ الهِنديِّ في كتاب «كَلِيلة ودِمْنة» - هذا التَّشبيهُ هو التَّشبيهُ الذي يكون فيه المُشبَّهُ به كثيرَ الأحوال والأحداث، حتَّى إنَّه لَيُمَثِّلُ أحيانًا قِصَّة، سواء كانت هذه القِصَّةُ لحيوانٍ أو لطائرٍ أو لإنسان، وهو تَشبيهٌ زاخرٌ بالخُصُوبة والدِّلالات؛ لأن كلَّ حَدَثٍ في المُشبَّهِ به لا بُدَّ أن يكونَ راجعًا لمعنًى في المُشبَّه، يُرادُ بهذا الحَدَث إظهارُ هذا المعنى، مِن ذلك عِنايةُ أبي العبَّاس بأبياتِ مجنونِ بني عَامرٍ[٢]، التي يقولُ فيها: [من الوافر]

كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى ... بِلَيْلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ

قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ ... تَجَاذَبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

وقد عقَّبَ عليها أبو العبَّاس بقولِه: «وقد قال الشُّعراءُ قبلَه فلم يَبْلُغُوا هذا المِقدارَ»[٣]. وهذا هو الذي عقَّبَ به على بيت امرئ القيس في الثُّرَيَّا، ولا يمكنُ أن يقولَ هذا الحُكمَ إلَّا بعد أن يكون بين يدَيْه أكثرُ ما قِيلَ في هذا

---

(١) عبدُ الله بنُ المُقَفَّعِ مِن أئمَّةِ الكُتَّاب، وأوَّلُ مَنْ عُنِيَ في الإسلام بترجمة كُتُبِ المَنْطِق، أصلُه من الفُرْس، وُلِدَ في العراق مَجوسِيًّا وأسلَمَ، وَلِيَ كتابةَ الدِّيوان للمنصورِ العبَّاسِيِّ، وتَرجَمَ له كُتبَ أرسطوطاليس الثَّلاثة في المنطق، وتَرجَمَ عن الفارسِيَّة كتاب «كليلة ودمنة»، اتُّهِمَ بالزَّندقةِ فقُتِلَ في البصرة سنة ١٤٢هـ، يُنظر: الأعلام للزِّرِكْلِيِّ ٤/ ١٤٠.

(٢) مَجْنُونُ بَنِي عَامِرٍ هو قَيْسُ بنُ المُلَوَّحِ بنِ مُزَاحِمٍ العَامِرِيُّ، شَاعِرٌ غَزِلٌ، مِن المُتَيَّمِين، لم يَكنْ مجنونًا وإنَّما لُقِّبَ بذلك لهُيَامِه في حُبِّ ليلى بنتِ سَعْد، جُمِعَ بعضُ شعرِه في ديوان، وصَنَّفَ ابنُ طُولون كتابًا في أخبارِه سَمَّاه: «بَسْطُ سَامِعِ المَسَامِرِ في أخبارِ مَجنونِ بني عَامِر»، وكان الأصمعِيُّ يُنكِر وجودَه، يُنظر: الأعلام للزِّرِكْلِيِّ ٥/ ٢٠٨.

(٣) الكامل ٣/ ٢٩.

المعنى، وأن يكونَ نَظَرَ فيه بعين النَّاقدِ البصير، ثمَّ رأى أنَّ ما قِيلَ فيه لم يَبْلُغِ المقدارَ الذي بَلَغَه مجنونُ بني عامر، وهذا الكلامُ من أبي العبَّاس، الذي تَعوَّدْنا على أن نقرأه وأن نكتبَه، ووراءه أبوابٌ من العلم مَسكوتٌ عنها، وإن كان أبو العبَّاس وغيرُه وضعوا مفاتيحَ هذه الأبوابِ فيها، ولو ذَهَبْنَا نَجْمعُ ما يُتاحُ لنا جَمْعُه من التَّشبيهات التي دارتْ حول معنًى واحد، ودَرَسْناها واجتهدنا في أن نَضَعَ أيدِيَنا على صَنْعةِ كلِّ شاعر، وكيف اختلفتْ ضُروبُ الصَّنْعةِ وتنوَّعتْ فُنونُ الخيال، وكيف نَفَثَ كلُّ شاعرٍ نَفْثةً منه على هذا المعنى العامِّ أو على هذا المعنى المطروح في الطَّريق، كما يقول الجاحظ، وكيف صار هذا المعنى مَعْنَاه، وكيف صار يُنْسَبُ إليه - أقول: لو فَعَلْنا هذا لكان بين أيدينا مِن ضُروب التَّشبيه ما هو جديرٌ بكل عناية، ولخَرَجْنا به ممَّا أَلِفْنَاه إلى ضُروب الصَّنْعة التي هي العالَمُ الأَفْسَحُ للدَّرسِ البلاغيِّ.

ذكر أبو العبَّاس مع هذا المعنى قولَ عُرْوةَ بنِ حِزَام: [من الطويل]

كَأَنَّ قَطَاةً عُلِّقَتْ بِجَنَاحِهَا ... عَلَى كَبِدِي مِنْ شِدَّةِ الْخَفَقَانِ(١)

وقولَ غيرِه: [من الكامل]

هَلَّا بَرَزْتَ إِلَى غَزَالَةَ فِي الْوَغَى ... بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طَائِرِ(٢)

---

(١) الكامل ٣/ ٣٤.

(٢) الكامل ٣/ ٢٩، ونَسَبَه أبو العبَّاس لعِمْرَانَ بنِ حِطَّان.
قالَه للحَجَّاج، وقبلَه البيتُ السَّيَّار:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ ... فَتْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

وقولَ غيرِه: [من الوافر]

وَلا الْحَجَّاجُ عَيْنَيْ بِنْتِ مَاءٍ تُقَلِّبُ طَرْفَهَا حَذَرَ الصُّقُورِ[١]

يَعْنِي أن قلبَه يتقلَّبُ في وَجَلٍ وخَوْفٍ كعَيْنِ طائرِ المَاء الذي يُقلِّبُ طَرْفَه هنا وهناك حَذَرَ الصُّقورِ التي تَترَصَّدُه.

وأَقْرَبُ هذا إلى قولِ مَجنُونِ بني عَامِرٍ قولُ عُرْوَةَ بنِ حِزَام؛ لأنَّ كلًّا منهما يَصِفُ قلبَه، وفَرْقٌ بين قَلبٍ صارَ قَطَاةً عَزَّها شَرَكٌ فصارتْ في فَمِ الموت، وقَلبٍ عُلِّقَتْ عليه قَطَاةٌ بجَنَاحِها فهو يَخْفِقُ بخَفْقِها. والشَّاهدانِ الآخرانِ يَصِفانِ قَلبَ الجَبَان، وأنَّ قَلبَه في جناحَيْ طائرٍ يَخْفِقُ في هواءٍ مُتَّسِع. وهذه خُطوطٌ عامَّة، والدَّرسُ المُفصَّلُ مِن وراء ذلك، والذي أريدُه الآنَ هو الشَّاهدُ الذي ذَكَرَ أنَّه لم يُلْحَق.

وأوَّلُ ما تراه في كلامِ مَجنُونِ بني عَامِرٍ قولُه: «قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلَى العَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ»؛ فأكَّد بذلك أن الخَبرَ لم يَثْبُتْ، وأوَّلُ دليلٍ على هذا قولُه: «قِيلَ»، يَعْنِي: هو خَبرٌ فاعِلُه مجهول؛ فهو خَبَرٌ طائرٌ لم يَثْبُت، ولذلك اعتبر العلماءُ القولَ الذي يُقال فيه: «وقِيلَ كذا» قولاً ضعيفًا؛ لأنَّ كلمةَ «قِيلَ» صِيغةُ تَمْرِيض. ولم يكتفِ الشَّاعرُ بهذا، وإنَّما أضافَ إليه تجهيلًا آخر بقوله: «يُغْدَى أَوْ يُرَاحُ»؛ فالقائلُ مجهولٌ والزَّمانُ

---

(١) الكامل ٣/ ٢٩، وذكَرَ أبو العبَّاس بيتًا قبلَه؛ هو:

طَلِيقُ اللهِ لَمْ يَمْنُنْ عَلَيْهِ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ أَبِي كَثِيرِ

ولم يَنْسُبْهما، وهما لإمام بنِ أَقْرَمَ النُّمَيْرِيِّ، وكان الحَجَّاجُ جَعلَه على شُرَطِ أبان بنِ مَرْوان ثمَّ حَبَسَه، فلمَّا خَرجَ قَالَهُما، يُنظر: البيان والتَّبيين ١/ ٣٨٦.

أيضًا مجهول، وهذا تقديمٌ جيِّدٌ جدًّا لوَصْفِ قلبه بما وَصَفَه به، مع أنَّ الخَبرَ خبرٌ طائرٌ.

ولا أشكُّ في أن أبا العبَّاس قرأ ما بعد هذين البيتَيْن(١)، وهو مِن تَمام التَّشبيه، وهو قولُه: [من الوافر]

لَهَا فَرْخَانِ قَدْ تُرِكَا بِوَكْرٍ فَعُشُّهُمَا تُصَفِّقُهُ الرِّيَاحُ
إِذَا سَمِعَا هُبُوبَ الرِّيحِ نَصَّا وَقَدْ أَوْدَى بِهَا الْقَدَرُ الْمُتَاحُ
فَلَا فِي اللَّيْلِ نَالَتْ مَا تَمَنَّتْ وَلَا فِي الصُّبْحِ كَانَ لَهَا بَرَاحُ

وهذا هو الذي يَجعلُ المُشبَّه به كأنَّه قِصَّة، ويَجعلُه تشبيهًا مُمتدًّا، ويَجعلُ له ثَراءً يَذهَبُ أكثرُه بالاختصارِ والاكتفاءِ بالبيتَيْن الأول والثَّاني، وإنْ كان قولُه: «عَزَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تَجَاذَبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ» فيه ما يَكفِي لأن يكونَ أفضلَ من التَّشبيهاتِ التي ذكرها أبو العبَّاس في اضطراب القلب؛ لأنَّ القَطاةَ هنا صارتْ في فَمِ الموتِ وهي تُجاذِبُ الشَّرَك مِن غير أملٍ في النَّجاة، ودلَّ على افتقاد الأمل بقوله: «قَدْ عَلِقَ الجَنَاحُ»، وهذا يَعني أنَّ الشَّاعرَ استشعرَ الفَقْدَ والعَدَمَ لَمَّا قِيل: «يُغْدَى بِلَيْلَى أَوْ يُرَاحُ»، وليس في الصُّور الأخرى شيءٌ من هذا الإحساس، والشَّاعرُ لم يَكْتَفِ بأنَّ القَطَاةَ تُجاذِبُ الشَّرَكَ رغبةً في الحياة وفزعًا من الموت فقط، وإنَّما أضاف إلى ذلك إحساسَ الأمومة الذي يَطْغَى على الرَّغبةِ في الحياة، وأنَّ هذه القَطاةَ المَخلوقَةَ مِن الحَنينِ والأُلْفَةِ

(١) هذا الذي لا يَشُكُّ فيه شيخُنا هو دليلُ صِدْقٍ على فِراسَتِه؛ إذ يبدو أنَّ نُسخةَ «الكامل» التي كانتْ بين يَدَيْه لم يكنْ فيها إلا البيتانِ الأوَّلان؛ فهَدَاه تَغَلْغُلُه في فِكْرِ أبي العبَّاس إلى أنَّه -لا ريبَ- قرأ ما بعدَهما، وقد جاءت الطبعاتُ التَّاليةُ لـ«الكامل» مُثْبَتًا فيها الأبياتُ المذكورة.

تُحِبُّ أن تَعيشَ لفَرْخَيْها وقد ذَكرتْ عُشَّهُما الذي في مَضِيعَةٍ[1] تُصفِّقُه الرِّيَاح، وذَكَر لَهْفةَ فَرْخَيْها لعودتِها، وأنهما كُلَّما سَمِعَا هُبُوبَ الرِّيَاح مَدَّا عُنُقَيْهِما، لعلَّ هذه الرِّيحَ تكون قد حَملَتْ إليهما أُمَّهُما ومعها الطَّعامُ والماءُ والدِّفءُ.. إلى آخره. وكلُّ هذا الذي ذَكَر مِن قِصَّة الفَرْخَيْن للدِّلالةِ على أن القَطاةَ كانت تُجاذِبُ الشَّرَكَ بكلِّ ما لديها من قوَّة، مدفوعةً بحُبِّ الحياةِ وكراهيةِ الموت، وبأنبلِ مشاعر الأمومة حول فَرْخَيْنِ في مَضِيعَة. وهذا التَّجاذُب الذي حشدَ له الشَّاعرُ كلَّ هذه المشاعر يُقابِلُ في حال مَجنُونِ بني عامرٍ مُحاولةَ التَّماسُكِ والتَّجلُّدِ في مواجهةِ خَبرِ طائرٍ لا يُعرَفُ قائلُه ولا يُعرَفُ زَمانُه، وأن هذا الفِراقَ وهذا التَّباعُدَ هو الشَّرَكُ الذي لم يُفْلِتْ قَلبَه حتَّى يُفضِيَ به إلى العَدَم. وهذا غيرُ كلِّ الشَّواهد التي ذكرها أبو العبَّاس.

وأنا الآن أحاوِلُ أن أُبيِّنَ المقدارَ الذي حاول الشعراءُ قبلَه وبعدَه ولم يَبْلُغوه، وأَقْطَعُ بأن هذا المِقدارَ عند أبي العبَّاس أبعدُ مَرْمًى ممَّا أقوله، وحَسْبُ المرءِ أن يقولِ ما عندَه.

عنايةُ المُبرِّد بتشبيه يَدَي النَّاقة

ذَكَر أبو العبَّاس من هذا اللَّونِ من التَّشبيه، الذي يكون المُشبَّهُ به فيه قِصَّةً وحكايةً، أبياتًا للشَّمَّاخِ وهو يَصِفُ سُرعةَ النَّاقة، ويُشبِّه ذراعَيْها في حال سُرعتِها بذِراعَي امْرأةٍ كريمةٍ أُسيء إليها، فأخذتْ تتبرَّأُ من هذه الإساءات، وتُدِلُّ بمنصبِها وشَرفِ حَسَبِها، وأن حَسَبَها وأدبَها وخُلُقَها كلُّ ذلك يَنفِي عنها ما رُمِيَتْ به.

---

(١) «المَضِيعَةُ: بِكَسْرِ الضَّاد، مَفْعِلَةٌ مِنَ الضَّيَاعِ؛ الاطِّرَاحِ والهَوَانِ»، لسان العرب (ض ي ع).

والحقيقةُ أن هذه الأبياتَ التي ذكرها أبو العبَّاس هي التي لَفَتَتْنِي إلى هذا اللَّونِ من التَّشبيه؛ لأني أعلَمُ، ويَعْلَمُ الشَّمَّاخُ، ويَعْلَمُ أبو العبَّاس أنَّ طرائقَ الإبانةِ عن سُرعةِ النَّاقةِ كثيرةٌ جدًّا، ومهما بالغتْ هذه المرأةُ في حركة ذراعَيْها وانعكسَ ذلك على ذراعَيِ النَّاقة - فإنه لا يُقدِّم لنا السُّرعةَ التي نراها في مِثلِ قولِهم: [من الطويل]

مَرُوحٌ بِرِجْلَيْهَا إِذَا هِيَ هَجَّرَتْ ... وَيَمْنَعُهَا مِنْ أَنْ تَطِيرَ زِمَامُهَا[١]

ومِثلِ قولِ امرئ القيس: [من الطويل]

كَأَنَّ الْحَصَى مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا ... إِذَا نَجَلَتْهُ رِجْلُهَا خَذْفُ أَعْسَرَا[٢]

فلماذا ذَكَر ذِراعَيْ هذه المرأة التي وراءها هذه القِصَّة؟ هل أراد الشَّاعرُ بذِكْرِها معنًى غيرَ هذا المعنى القريب؟ وهذا ليس بعيدًا في الشِّعر؛ فقد ذكروا أن الشَّاعرَ يَذكُرُ الشيءَ وهو يُريد غيرَه، ولمَّا قال امرؤ القيس: [من الطويل]

أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي[٣]

---

(١) لم يُعْرَفْ قائلُه، وهو في: الكامل ٣/ ٨١، والموازنة ٢/ ٢٨٦، والأنوار ومحاسن الأشعار ص ١٧٦. و«مَرُوحٌ»: من «المَرَح» وهو شِدَّة الفَرَحِ والنَّشاط، الصِّحاح (م ر ح)، و«هجَّرَتْ»: سَارَتْ في الهَاجِرَة، والهَاجِرةُ: نِصْفُ النَّهارِ عند اشتداد الحَرِّ، الصِّحاح (هـ ج ر).

(٢) في ديوانه، ص ٦٤. و«النَّجْلُ»: رَمْيُك بالشَّيءِ، والنَّاقَةُ تَنْجُلُ الحَصَى بمناسِمِها، أيْ: ترمِي به، العين (ن ج ل)، و«الخَذْفُ»: أنْ يأخذَ الرَّجلُ الحَصاةَ وغيرَها بين سَبَّابَتَيْه ثمَّ يَعْتَمِدُ باليُمْنى على اليُسْرَى فيَخْذِفَ بهما، جمهرة اللغة (خ ذ ف).

(٣) في ديوانه، ص ٢٧. وعَجُزُه:

وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصُرِ الْخَالِي

قالوا: «ذَكَر الطَّلَلَ وهو يُرِيدُ نَفسَه»[1].

ونَدَعُ هذا الآنَ ونقرأ الأبيات؛ قال أبو العبَّاس: قال الشَّمَّاخُ: [من الطويل]

كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَا مُدِلَّةٍ ... بُعَيْدَ السِّبَابِ حَاوَلَتْ أَنْ تَعَذَّرَا

مِنَ الْبِيضِ أَعْطَافًا إِذَا اتَّصَلَتْ دَعَتْ ... فِرَاسَ بْنَ غَنْمٍ أَوْ لَقِيطَ بْنَ يَعْمَرَا

بِهَا شَرَقٌ مِنْ زَعْفَرَانٍ وَعَنْبَرٍ ... أَطَارَتْ مِنَ الْحُسْنِ الرِّدَاءَ الْمُحَبَّرَا

تَقُولُ وَقَدْ بَلَّ الدُّمُوعُ خِمَارَهَا ... أَبَى عِفَّتِي وَمَنْصِبِي أَنْ أُعَيَّرَا

كَأَنَّ بِذِفْرَاهَا مَنَادِيلَ فَارَقَتْ[2] ... أَكُفَّ رِجَالٍ يَعْصِرُونَ الصَّنَوْبَرَا

كَأَنَّ ابْنَ آوَى مُوثَقٌ تَحْتَ غَرْضِهَا ... إِذَا هُوَ لَمْ يَكْلِمْ بِنَابَيْهِ ظَفَّرَا[3]

قال أبو العبَّاس: «شَبَّه يدَيْها بيدَيْ مُدِلَّةٍ بجمالٍ ومَنصِبٍ قد سَابَّتْ وأقبلتْ تَعتذِرُ وتُشِيرُ بيدَيْها، فوَصَفَ جمالَها الذي به تُدِلُّ، ومَنصِبَها المُتَّصِلَ بمَنْ ذَكَرتْه.

وقوله: (أَطَارَتْ مِنَ الْحُسْنِ الرِّدَاءَ الْمُحَبَّرَا)، يقول: هي مُدِلَّةٌ بجَمَالِها فلا تَختَمِرُ فتَستُرُ شيئًا عن النَّاظِر؛ لأنَّها تَبتَهِجُ بكلِّ ما في وجهها ورأسها.

---

(١) قال ذلك الأعلَمُ الشَّنتَمِرِيُّ، وتَمَامُ كلامه في شرح البيت هو: «دعا للطَّلَل بالنَّعيم، وأنْ يكونَ سَالمًا من الآفات، وهذا من عاداتِهم، وكأنهم يَعْنُون بذلك أهلَ الطَّلَل، وقولُه: (وَهَلْ يَعِمَنْ)، يقول: قد تفرَّقَ أهلُكَ وذهبوا فتغيَّرْتَ بعدَهم عمَّا كنتَ عليه فكيف تَنْعَمُ بعدَهم، وكأنه يَعْنِي بذلك نفسَه؛ فضُرِبَ المَثلُ بوَصْفِ الطَّلَل»، شرح ديوان امرئ القيس للأَعْلَمِ الشَّنْتَمَرِيِّ، ص ٩٨.

(٢) في ديوان الشَّمَّاخ: «قَارَفَتْ»، وقد اعتمدَها شَيخُنا في الشَّرْح.

(٣) في ديوانه، ص ١٣٤ – ١٣٧، باختلافٍ في التَّرتيب وإغفالٍ لثلاثة أبياتٍ يشير إليها شَيخُنا بَعْدُ.

وقد كَشَفَ هذا المعنى عُمَرُ بنُ أبي رَبِيعةَ المَخْزُومِيُّ حيثُ يقول: [من الطويل]

فَلَمَّا تَوَاقَفْنَا وَسَلَّمْتُ أَشْرَقَتْ ... وُجُوهٌ زَهَاهَا الْحُسْنُ أَنْ تَتَقَنَّعَا
تَبَالَهْنَ بِالْعِرْفَانِ لَمَّا رَأَيْنَنِي ... وَقُلْنَ امْرُؤٌ بَاغٍ أَكَلَّ فَأَوْضَعَا
وَقَرَّبْنَ أَسْبَابَ الْهَوَى لِمُتَيَّمٍ ... يَقِيسُ ذِرَاعًا كُلَّمَا قِسْنَ إِصْبَعًا»[١]

وقولُ أبي العبَّاس: «وقد كَشَفَ هذا المعنى عُمَرُ بنُ أبي رَبِيعةَ» كلمةٌ جيِّدة؛ لأنَّها تَعْنِي أن خَواطِرَ الشِّعرِ لها تاريخُ ميلاد، ثمَّ قِصَّةُ حياةٍ تَقلَّبَتْ فيها بين الشُّعراءِ وتَدَاوَلُوها، وأنَّ الذي يقول: «كَشَفَها فُلانٌ» لا يقولُها إلَّا إذا كان الشِّعرُ كلُّه تحت لسانِه.

وكلمةُ «زَهَاهَا الحُسْنُ» غيرُ كَلمةِ «أَطَارَتْ مِنَ الحُسْنِ الرِّدَاءَ» وإن اتَّفقَ أصلُ المعنى، والتي أطارتِ الرِّداءَ مُسْتَثارَةٌ بعدَما أصابَها لِسانٌ جارَ عليها وأَهْجَرَ[٢]، كما بَيَّنَتِ الأبياتُ التي أَسقطَها أبو العبَّاس كما سنُبيِّن.

وهذا غيرُ حالةِ الوُجوه التي زَهَاها الحُسْنُ، وتُوشِك كلمةُ «زَهَاهَا الحُسْنُ» أن تكونَ مِنْ تحتِ كلمةِ «أَشْرَقَتْ وُجُوهٌ»، ورَاجِع «المُفاعَلَة» في قولِه: «تَوَاقَفْنَا»، وأنَّ كلًّا وَقفَ مِن أجلِ الآخر، ثم سَلَّمْتُ، ثمَّ أشرقَتْ وُجُوهٌ، ثمَّ تَبالَهْنَ بالعِرْفَان، ثمَّ قَدَّمْنَ أسبابَ الهَوَى، وكلُّ هذا مُنتِجٌ لا محالةَ «زَهَاهَا الحُسْنُ»، بخلاف تلك الغاضِبةِ الكريمةِ المُسْتثارَة؛ فلا يمكن مطلقًا أن تقول فيها: «زَهَاها الحُسْنُ»، ولا يمكن أن تقول في صَواحِبَاتِ عُمَر: «أَطَرْنَ مِنَ الحُسْنِ الرِّدَاءَ المُحَبَّرَا».

(١) الكامل ٣/ ٧٧ - ٧٨.
(٢) «أَهْجَرَ» مِن «الهُجْر»، وهو الإفْحَاشُ في المَنْطِق، العين (هـ ج ر).

وقد أغفل أبو العبَّاس ثلاثةَ أبياتٍ ذُكِرَتْ في الدِّيوان بعد قول الشَّمَّاخ: «كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَا مُدِلَّةٍ»، وهي مِن تَمامِ المعنى، وقد بُنِيتِ الأبياتُ بعدَها عليها، وهي: [من الطويل]

كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَا مُدِلَّةٍ بُعَيْدَ السِّبَابِ حَاوَلَتْ أَنْ تَعَذَّرَا

مُمَجَّدَةِ الأَعْرَاقِ قَالَ ابْنُ ضَرَّةٍ عَلَيْهَا كَلَامًا جَارَ فِيهِ وَأَهْجَرَا

تَقُولُ لَهَا جَارَاتُهَا إِذْ أَتَيْنَهَا يَحِقُّ لِلَيْلَى أَنْ تُعَانَ وَتُنْصَرَا

يَغَرْنَ لِمِبْهَاجٍ أَزَالَتْ حَلِيلَهَا غَمَامَةُ صَيْفٍ مَاؤُهَا غَيْرُ أَكْدَرَا

مِنَ الْبِيضِ أَعْطَافًا إِذَا اتَّصَلَتْ دَعَتْ فِرَاسَ بْنَ غَنْمٍ أَوْ لَقِيطَ بْنَ يَعْمَرَا(١)

إلى آخر الأبياتِ التي رواها أبو العبَّاس.

وفي الدِّيوان شيءٌ آخرُ غيرُ حذفِ الأبيات الثَّلاثة، وهو أن قولَه: «كَأَنَّ بِذِفْرَاهَا مَنَادِيلَ فَارَقَتْ..» إلى آخره - مُتأخِّرٌ في رواية الدِّيوان عن قوله: «كَأَنَّ ابْنَ آوَى»، وهو أَشْبَهُ؛ لأن قولَه: «كَأَنَّ ابْنَ آوَى» مِن أوصاف السُّرعة؛ فإلحاقُه بذِكْر «ذِرَاعَيْها» أقربُ، إلَّا أنْ يُقالَ شيءٌ آخرُ سأَعْرِضُ له.

والأبياتُ التي أغفلها أبو العبَّاس شَرحٌ للسِّبَاب، وبيانُ أنه من ابنِ ضَرَّةٍ لها، وأنَّ جَاراتِها لمَّا سَمِعْنَ ذلك أَتَيْنَها ورأيْنَ أنَّ مِن حقِّها أنْ تُنصَر، وأنهنَّ يَغَرْنَ لها، وهذا كلُّه هو السِّياق الذي تكلَّمتْ فيه وحرَّكتْ ذراعَيْها، وهذا هو عَمودُ التَّشبيه وعَمودُ هذه الصُّورة.

والذي أَفْهَمُه مِن قوله: «أَزَالَتْ حَلِيلَهَا غَمَامَةُ صَيْفٍ مَاؤُهَا غَيْرُ أَكْدَرَا» هو أَنَّها باعدتْ صاحِبَها إبعادًا كريمًا في زمنٍ قصير؛ لأن سحابةَ

(١) ديوان الشَّمَّاخ، ص ١٣٤ - ١٣٦.

الصَّيفِ أخفُّ السَّحابِ وأسرعُه، وأن ذلك لم يُكدِّرْ علاقتَها به، وهذا هو الملائمُ لقوله: «مُمَجَّدَةِ الأَعْرَاقِ»، وهذه شِيَمُهم. و«بِهَا شَرَقٌ مِنْ زَعْفَرَانٍ» هو ما يَبْقَى عالِقًا مِن الطِّيب. و«ابنُ آوَى»: القِطُّ المُوثَقُ تحت حِزامِ الرَّحْل، وهذا تصويرٌ وتخييل. ومعنى «إِذَا هُوَ لَمْ يَكْلِمْ بِنَابَيْهِ» يعني أنَّه إذا لم يَجْرَحْها بنابَيْه أصابَها بأظافره. و«ذِفْرَا النَّاقَة»: أعلى قفاها خَلْفَ الأُذُن، وعَرَقُهما وسَوادُهما مِن دلائل نَجابةِ النَّاقة. و«قَارَفَتْ أَكُفَّ رِجَالٍ»: لازَمَتْ. والصَّنَوْبَرُ عصيرُه أَسْوَدُ.

وذَكَر أبو العبَّاس شاهدًا آخرَ لهذا، هو قولُ الشَّاعر: [من الطويل]

كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَا بَذِيَّةٍ ... مُفَجَّعَةٍ لَاقَتْ خَلَائِلَ عَنْ عَفْرِ
سَمِعْنَ لَهَا وَاسْتَفْرَغَتْ فِي حَدِيثِهَا ... فَلَا شَيْءَ يَفْرِي بِالْيَدَيْنِ كَمَا تَفْرِي[1]

وعقَّب أبو العبَّاس على هذا بقوله: «ولو قِيلَ إنَّ هذا مِن أبلغِ ما قِيلَ في هذا الوَصْفِ ما كان ذلك بعيدًا؛ وَصَفَها بأنَّها بَذِيَّةٌ وقد فُجِّعَتْ مِمَّا أُسْمِعَتْ ونِيلَ منها، ولَقِيتْ خَلائلَها بعدَ زمانٍ وتلك الشَّكوى كامِنةٌ فيها، وأَصْغَيْنَ إليها فتسَمَّعْنَ»[2] انتهى كلام أبي العبَّاس.

والشَّاعرُ هنا لم يَسترسِلْ كما استرسلَ الشَّمَّاخُ الذي شُغِلَ بعَراقَة المرأة، وأنها مِبْهاجٌ ومن البيضِ أعطافًا.. إلى آخره. الشَّاعرُ هنا اهتمَّ بالكلمات التي تُثِيرُ هذه البَذِيئةَ وتُفَجِّعُها، ولا بُدَّ أن يكون خَلائلُها هنا أيضًا مِن

(١) أوردَهما أبو العبَّاس بلا نِسْبة، الكامل ٣/ ٧٩، وهما كذلك في ديوان المعاني ٢/ ١٠١٠، وحماسة الخالِدِيَّيْن ١/ ١٩٠.
(٢) الكامل ٣/ ٧٩.

عِرْقِها، وأنهنَّ سَمِعْنَ لها وكُنَّ يَزِدْنَها إثارةً، فلم يَفْرِ أحدٌ باليدَيْن كما تَفْرِي. و«الفَرْيُ»: الشَّقُّ. وهذه جُملةٌ جيِّدةٌ جدًّا، وجاءت في خِتام الحديث عن هذه المرأة، وهي نَصٌّ في الموضوع، ولذلك قال أبو العبَّاس: «لو قِيلَ إنَّ هذا مِن أبلغِ ما قِيلَ في هذا الوَصفِ ما كان ذلك بعيدًا».

ومِن حَقِّنا أنْ نطرحَ ما يَعِنُّ لنا من أسئلةٍ على أبي العبَّاس؛ لأنه أحدُ شُيوخِ هذه اللُّغةِ الكِبار، وكان أهلُ زمانِه - وفيهم المُزَنِيُّ والجَرْمِيُّ وابنُ السَّرَّاج والجاحظُ - يَرجِعون إليه في مشكلاتهم، وقد كتب «الكامل» في آخرِ أيَّامِه، وذكر الشَّيخُ/ عُضَيْمَة أنَّه كَتبَ «المُقْتضَب» بعدَما اكتمل عِلمُه واكتملتْ ثقافتُه[1]، ثم إنه كَتبَ «الكامل» بعد «المُقْتضَب» وأحال على «المُقْتضَب» في بعض مسائل «الكامل».

هل مِن حقِّنا أن نسأل أبا العبَّاس لماذا اختارَ تشبيهَيْنِ مختلفَيْنِ أشدَّ الاختلافِ لمُشبَّهٍ واحد: ذِرَاعِ مُدِلَّةٍ مِن شأنِها كذا وكذا، وذِرَاعِ بَذِيَّةٍ مِن شأنِها كذا وكذا؟ هل أراد أبو العبَّاس أن يقولَ لنا: إن المُشبَّهَ وحدَه ليس هو الذي يَستدْعِي المُشبَّهَ به، وإنَّما يَدخلُ معه في اختيار المُشبَّهِ به سِياقُ القصيدة، ولو كان المُشبَّهُ وحدَه هو المُعوَّلَ عليه لصَحَّ أن نَضعَ «ذِرَاع بَذِيَّةٍ» مكانَ «ذِرَاع مُدِلَّةٍ» أو العكسُ، ولو صَحَّ هذا لصَحَّ أن نَضعَ تشبيهَ أعمالِ الذين كفروا برَمَادٍ اشتدَّتْ به الرِّيحُ في يَومٍ عَاصِفٍ، الذي جاء في سورة (إبراهيم)، مَوضِعَ تَشبيهِ أعمالِهم بسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُه الظَّمآنُ ماءً، الذي

---

(١) قال الشَّيخ/ عُضَيْمَة: «المُقْتَضَب: أَلَّفه شَيخُ العربيَّة في وقتِه في زمنِ شيخوختِه بعد أن اكتملَ نُضْجُه العقلي، وعَمُقَ تفكيرُه، واستوتْ ثقافتُه»، مقدِّمة «المُقتضَب» ١/ ٧٠.

جاء في سورة (النُّور)؟ وكلُّ ذلك غيرُ صحيح؛ فما الذي أغْرَى الشَّمَّاخَ بيَدَيِ المُدِلَّةِ التي إذا انْتَسَبَتْ دَعَتْ فِراسَ بنَ عمرو، وهو سَيِّدٌ في تَغْلِب، أو لَقِيطَ بنَ يَعْمَر، وهو أيضًا سَيِّدٌ في تَغْلِب، وكلاهما صار جِذْرَ أَرُومَةٍ؟

أقول: يَستوِي أن يكون أبو العبَّاس أراد أن يَلْفِتَ إلى هذا أو لم يُرِد؛ لأنَّ كلام العالِم إذا أثار في نفوسنا خاطرًا صار مِن حَقِّه علينا أن نَعُدَّ هذا الخاطرَ مِن عطائه ولو لم يُرِدْه؛ لأنَّه لولا كلامُه ما ثار في نفوسِنا هذا الخاطر، ومِن الخَيرِ أنْ نَتخفَّفَ في مسألةِ أرادَ المُصنِّفُ أو لم يُرِد، وحَسْبُ فِكرَتِه أنها أثارتْ عندك فكرةً.

ولم أَجِدْ أصعبَ من بيان مناسبة التَّشبيه لسِياق القصيدة أو سياق السُّورة، ومع طُولِ محاولاتي في هذا فإني لم أُصِبْ منه إلا القليل، والإصابةُ غالبًا ما تكون على وَجْه المُقارَبة، وليس على وَجْه القَطْع، وهذا مِن أفضل المسكوتِ عنه؛ لصعوبة الخَوضِ فيه، ولو اقتحَمَه أهلُ العِلمِ الصُّرحَاءُ وابتعد غيرُهم لانْقَادَ هذا البابُ العَصِيُّ؛ لأنَّ خطأَ أهلِ العلم الصَّادقين في البحثِ عن الصَّواب ربما أثارَ مَنْ هو أَشْبَهُ بهم؛ فدَرَسَ ورَاجَع وأصابَ.

وقد راجعتُ قصيدةَ الشَّمَّاخ، ورأيتُ أنه لا يجوز أن يقول: «كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَا بَذِيَّةٍ»، وبيانُ ذلك بإيجازٍ شديدٍ أنَّ هذه القصيدةَ قالها الشَّمَّاخُ بعدَما عَلَتْ به السِّنُّ: [من الطويل]

فَقَوْلُ ابْنَتِي أَصْبَحْتَ شَيْخًا وَمَنْ أَكُنْ ... لَهُ لِدَةً يُصْبِحْ مِنَ الشَّيْبِ أَوْجَرَا[1]

(١) في ديوانه، ص ١٣٠، وهو البيتُ السَّادسُ في قصيدتِه التي منها الأبياتُ مَحلُّ النَّظَر.

و«اللِّـدَة»: هـو المَولـودُ في سِـنِّه. ومعنـى «يُصْبِـح أَوْجَـرَا» أي: أَوْجَـلَ وأَخْـوَفَ وكأنَّـه يَترقَّـبُ المـوتَ.

وفي القصيدة أنَّه غَلَبَه الدَّيْنُ فارتحلَ رِحلةً طويلةً إلى مَعْشَرٍ لا يَرضَى بغيرِهم مَعْشَرًا من النَّاس، والرِّحلةُ إلى الكِرامِ مِن أعظمِ الثَّناء عليهم، ومن أعظمِ ثَناءِ الشَّاعرِ على نفسِه؛ لأنه لا يَرْحَلُ إلى الكِرامِ إلا كريمٌ، ولا يَقبَلُ أن يَحُطَّ عنه ثِقَلَ دَيْنِه إلا كريم، وقد وصف المشقَّةَ التي قطعَتْها ناقتُه في هذه الرِّحلة، وأنها إذا قَطعتْ قُفًّا كُمَيْتًا بدا لها سَمَاوةُ قُفٍّ، و«القُفُّ»: ما غَلُظَ مِن الأرضِ وعَلَا ولم يَبلُغْ أن يكونَ جَبلًا، و«الكُمَيْتُ»: لَوْنٌ بين السَّوادِ والحُمْرَة، و«سَمَاوَةُ القُفِّ»: أَعْلَاه؛ يعني: ما إنْ تَقْطَعْ أرضًا شَاقَّةً إلا بدا لها ما هو أشقُّ منها. وقد مَدَحَ النَّاقةَ وذَكَرَ عَراقَةَ عِرْقِها بقولِه: «كَأَنَّ بِذِفْرَاهَا مَنَادِيلَ قَارَفَتْ أَكُفَّ رِجَالٍ»، وسَبَقَ ذِكْرُه، ومَدَحَها أيضًا بقولِه: [من الطويل]

فَقَرَّبْـتُ مُبْـرَاةً تَخَـالُ ضُلُوعَهَـا ... مِنَ الْمَاسِخِيَّاتِ الْقِسِيَّ الْمُؤَتَّرَا(١)

وهـذا مِن أفضـلِ مـا تُمـدَحُ بـه النُّوقُ، وقـد ذكـر أبـو العبَّاس هـذا البيـتَ واستحسنَه. و«المُبْـرَاة»، بضَـمِّ المِيـم: التـي في أنْفِهَـا البُرَّةُ التي تُقـاد بها، وخَتَم القصيـدةَ بثَنَاءٍ على النَّاقـة وأنَّ كلَّ بَعيرٍ فِـداءٌ لها، وذلـك قولُه: [مـن الطويل]

فَـكُلُّ بَعِيـرٍ أَحْسَـنَ النَّـاسُ نَعْتَـهُ ... وَآخَرَ لَـمْ يُنْعَـتْ فِـدَاءٌ لِضَمْـزَرَا(٢)

و«ضَمْـزَر»: اسـمُ النَّاقـة. وهـذا البيـتُ وحـدَه يَكفِـي في القـول بأنَّـه مـا كان لنَاقـةٍ يُفَدِّيهـا بكلِّ بَعيرٍ أحسـنَ النَّاسُ وَصْفَـه، وكلِّ بَعيرٍ لـم يُنْعَـتْ أنْ يَصِـفَ

(١) في ديوانه، ص ١٣٣.

(٢) في ديوانه، ص ١٤٥.

ذراعَيْها بذِرَاعَيْ بَذِيئة، هذا فضلًا عن التَّقارُب في العَرَاقةِ بين النَّاقةِ وبين المُدِلَّةِ المُمَجَّدةِ الأعراق.

ذكرتُ أن أبا العبَّاس قدَّم قولَه: «كَأَنَّ بِذِفْرَاهَا» على قولِه: «كَأَنَّ ابْنَ آوَى»، ولو قلتُ إن هذا التَّقديمَ يَعني ضمَّ وَصْفِ النَّاقة بالعَراقةِ إلى أوصافِ المُدِلَّةِ المُمَجَّدةِ الأعراق لم يكن هذا بعيدًا عن وَعْي أبي العبَّاس بخفايا الشِّعر، وأبو العبَّاس قرأ القصيدةَ كلَّها وذكر منها أبياتًا، ولا يمكن أن يَخْفَى عليه استحالةُ أن يقولَ الشَّمَّاخُ: «كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعَا بَذِيَّةٍ» بعدَما رافقَتْه في الرِّحلة وهو وحدَه وليس له رَفيقٌ سواها، وقد ودَّعَ «أُمَّ بيضاءَ» أكرمَ توديعٍ بقوله: [من الطويل]

عَلَى أُمِّ بَيْضَاءَ السَّلَامُ مُضَاعَفًا ... عَدِيدَ الْحَصَى مَا بَيْنَ حِمْصَ وَشَيْزَرَا[(١)]

وحين يَستقِيمُ لنا بيانُ العلاقة بين الصُّورةِ البيانيَّة، وخصوصًا الصُّورة الممتدَّة، وبين القصيدةِ على النَّحو الذي حاولْتُه والذي يَتَّسِعُ لأكثرَ ممَّا قُلناه نَعودُ إلى بيانِ العلاقةِ بين قولِه تعالى: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩] وقولِه جلَّ شأنُه: ﴿كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وبيانِ أنَّه لا يَسدُّ أحدُهما مَسَدَّ الآخَر بيانًا مُقنِعًا.

والعجيبُ أنه مع كَثرةِ كُتُب التَّفسير، وكَثرةِ الدِّراسات القرآنيَّة، وكَثرةِ دراسات تشبيهات القرآن وأمثالِ القرآن، يبقى هذا الأمرُ الجليلُ مَسكوتًا

(١) في ديوانه، ص ١٢٩.

عنه، وسأحاول بيانَ ذلك بإيجازٍ كما حَاولْتُ بيانَ علاقةِ ذِرَاعي الْمُدِلَّةِ بقصيدة الشَّمَّاخ؛ فإنْ أصَبْتُ فذلك فضلٌ مِن الله لا طاقةَ لي بشُكْرِه، وإن كانت الأخرى فعُذْرِي أنني أحاولُ أن أتكلَّمَ في المسكوتِ عنه، ولعلَّ ما أقولُه يَسْتَحِثُّ مَن هو أقدرُ مِنِّي على بيانه.

سياق تشبيه أعمال الذين كفروا

والذي لاحظْتُه أنَّ تَشبِيهَ أعمال الذين كفروا في سورة «إبراهيم» برَمادٍ اشتدَّت به الرِّيحُ في يَومٍ عاصِفٍ جاء بعد الإخبار بهلاك أصحاب الأعمال، وأنَّ الذين كفروا لمَّا قالوا لرُسُلهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]، ثمَّ قال سبحانه: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٥ - ١٧]، ثمَّ جاء مَثَلُ أعمالِهم، وقال -جلَّ شأنُه-: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وهذا معناه أنَّ ذِكْرَ الأعمال جاء بعد هلاكِهم ودخولِهم النَّارَ وتَجرُّعِهم العذاب، وأنَّه يأتيهم الموتُ من كلِّ مكان، وهذا لا يُناسِبُه أن تُذكَرَ مكانَه صُورةُ المَثَلِ التي في «النُّور»؛ لأن صاحِبَ العملِ هنا حَيٌّ يركُضُ وراء السَّرابِ وهو ظامِئ، فلم يَجِدْ شيئًا ووَجدَ الله فوَفَّاه الله حِسابَه، وكيف يُقال: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٣٩] بعدَما أخبرَ أنَّه

- سُبحانَه - أهلكَه، وأنَّه مِن ورائه جهنَّمُ إلى آخرِ ما في سورة «إبراهيم»؟ ولاحِظْ ما في سورة «إبراهيم»: رَمادٌ اشتدَّت به الرِّيح، ولم يَقُلْ: «اشتدَّت عليه»؛ لأن الذي في الآيةِ أن الرِّيحَ اقتلَعَتْه وذهبتْ به حيث تذهب، ثمَّ ذَكَرَ العَاصِفَ وأنه ليس وَصْفًا للرِّيح في الآية، وإنَّما هو وَصْفٌ لليوم، وفَرقٌ بين قولنا: «رِيحٌ عاصِفة» وقولِنا: «يَومٌ عاصِف»، كلُّ هذا تأكيدٌ لهلاك هذه الأعمال بعد بيان هلاكِ أصحابها.

والسِّياقُ مُختلِفٌ في سورة «النُّور»؛ لأن الذي قبلَ ذِكرِ أعمال الذين كفروا ذِكْرُ الرِّجالِ الذين لا تُلهِيهم تِجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكْر الله، ثمَّ خَتمتِ الآيةُ الحديثَ عن هؤلاء المُكرَّمِين بقولِه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النُّور: ٣٨]، وكانتْ هذه الزِّيادةُ التي هي مِن فضلِه - سُبحانَه - داعِيةً إلى ذِكرِ أعمالِ الذين هم على الضِّدِّ مِن ذلك، وهم الذين كفروا، وقُوبِلَتْ الزِّيادةُ بقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النُّور: ٣٩]، وهذا ظاهِرٌ -إن شاء الله-.

ومُناسَبةٌ أخرى في سورة «النُّور»، وهي جليلةٌ جدًّا، وأعني بها ذِكْرَ ظُلُماتِ البَحرِ اللُّجِّيِّ الذي مِن فوقِه مَوجٌ مِن فوقِه سَحابٌ؛ فانتقلت الآيةُ من الصَّحراءِ القاحِلةِ المتوقِّدة، التي يَظهَرُ فيها السَّرابُ، إلى المُقابِل، وهو بَحرٌ لُجِّيٌّ.. إلى آخره، وهذا الانتقالُ مِن مُشبَّهٍ به إلى مُشبَّهٍ به آخر والمُشبَّهُ شيءٌ واحدٌ - كثيرٌ في الشِّعر الجاهلي؛ ترى الشَّاعرَ يُشبِّه ناقتَه بالعَيْرِ الذي هو حِمارُ الوَحْش، ويَذكُرُ له قِصَّةً قد تطول، ثمَّ

بعدَما يُشبعُ هذه القصَّةَ بالأحداث والأحوال يقولُ: «أو»، ثمَّ يأتي بمُشبَّهٍ به آخرَ؛ كالثَّور، أو الظَّليم، أو البقرةِ المَسْبُوعَة التي أكلَ السَّبُعُ وَلَدَها، ويَذكرُ لها قِصَّةً هي أيضًا زاخرةٌ بالأحداث والأحوال، وقد تنتهي القصيدةُ بهذا أو تُذكَرُ أبياتٌ قليلةٌ في المدح أو الهجاء أو ما شاء الشَّاعر، وكأن الذي أراده الشَّاعرُ هو في هذه القِصَص، وكأنَّ أحوالَ المُشبَّه به التي استغرقتْ أكثرَ القصيدة هي التي أضْمَرَ فيها الشَّاعرُ مُرادَه.

وقد جاء ذلك في الكتاب العزيز، ومنه قولُه تعالى في الموضوع الذي نحن فيه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ [النور: ٤٠]، وقولُه سبحانَه في سورة «البقرة» في: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]، فذكر سبحانَه أوَّلًا: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] إلى آخر الآية، ثم قال جلَّ شأنُه: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩]، والأصلُ أن نُتقِنَ عِلمَ ذلك في الشِّعر الجاهلي، الذي هو اللِّسانُ المُبين الذي نَزَلَ به القرآن، فإذا سَلِسَ لنا وانقادَ انتقلْنا إلى القرآن، ولكنَّ المشكلةَ أن المشغولِينَ بالقرآن أداروا ظُهورَهم إلى الشِّعر الجاهلي، والمشغولِينَ بالشِّعر أداروا ظُهورَهم إلى الدِّراساتِ القرآنيَّة، فأدار الزَّمانُ ظَهرَه لهؤلاء وهؤلاء.

ومِن أسرار البيانِ الذي بُنِيَتْ عليه الطِّباعُ أنَّك ترى السِّرَّ فيه غامضًا وبعيدًا، فإذا هُدِيتَ إليه بهُدَى الله رأيتَه واضحًا جدًّا، حتَّى إنَّك لتَعجَبُ كيف كان غامضًا؟! وشَاهِدُ ذلك ما قلتُه في سورتَيْ «إبراهيم» و«النُّور»،

وسأحاول بيانَ ما بعد كلمة «أو» في سورتَي «البقرة» و«النُّور»، وأَشهدُ أنَّ هذا شَغَلَني كثيرًا ولم ينكشفْ لي شيءٌ منه إلَّا بعدَ لأْيٍ ولَأْوَاء، وبعدَما تكشَّف لي صِرتُ أَعْجَبُ من شدَّة ظهوره، وكيف كان غائبًا عني وغائمًا عليَّ هذا الزَّمن؟! وإذا كانوا علَّمُونا أنه لا حرجَ في العِلم فمن حقِّنا أن نُضيفَ إليه: «ولا حرجَ في الجَهْل»، والمهمُّ أن نحاولَ إزاحة الجَهْل، ولعلَّ الله - سبحانَه - يتقبَّل منَّا ذلك، ويجعلُنا مع الذي رآه ﷺ يتقلَّبُ في الجنَّة بسبب غُصْنِ شَوْكٍ أزاحه عن الطَّريق خشيةَ أن يؤذِيَ المسلمين[1]، ونرجو الله -سبحانَه- أن يجعلَ ما نحن فيه إزالةَ غُصْنِ جَهْلٍ، وأغصانُ الجَهْل أكثرُ فَتْكًا بالمسلمين من أغصان الشَّوْك.

سياق تشبيه الذين اشتروا الضَّلالةَ بالهُدى

وأقولُ - وبالله التَّوفيق - مُبتدِئًا بتعاقُب التَّشبيهَيْن في سورة «البقرة»، وأوَّلُ ما أُلاحِظُه في هذا هو دِقَّةُ بناء المعنى؛ فقد بدأ بالاسم الموصول، وهو نكِرةٌ يُعرَّف بالصِّلة، ولذلك اشترطوا أن تكون الصِّلةُ أمرًا معلومًا مُتعارَفًا حتى يَصِحَّ تعريفُها للنَّكرة[2]، ومعنى هذا أن قِصَّة الصِّلة هنا،

(١) أخرجَ البُخاريُّ بسَنَدِه عن أبي هُريرَةَ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «بينما رَجُلٌ يمشي بطريقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ فأخذَه فشكرَ الله له فغفرَ له»، صحيح البُخارِيّ، كتاب: المَظالِم، باب: مَن أخذَ الغُصنَ وما يؤذي النَّاسَ في الطَّريق فرَمَى به، حديث رقم (٢٤٧٢).
وأورد أحمدُ بسَنَدِه عن أبي هُريرَةَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «بينما رَجُلٌ يمشي على طريقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْك، فقال: لأرفعنَّ هذا لعلَّ الله عز وجل يَغفِرُ لي به، فرَفَعَه، فغَفَرَ الله له به، وأدخلَه الجنَّة»، مسند أحمد، حديث رقم (١٠٢٨٩).

(٢) يُنظر: أوْضَح المَسالِك إلى ألفِيَّةِ ابنِ مالك ١/ ١٦٤، وتعليق الشَّيخ محمَّد مُحيي الدِّين عبد الحميد (هامش ١).

وهـي ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقـرة: ١٧] قِصَّـةٌ مُتعالَمَـةٌ مشـهورة، وكلمـةُ ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ فيهـا معنيـان؛ الأوَّل: أنَّـه ألـحَّ في طَلَـبِ مـا يُنِيـرُ لـه السَّـبيل؛ لأنَّ الألِـفَ والسِّـينَ والتَّـاءَ ثَلاثتُهـا تـدلُّ على الطَّلَب والإلحاح في الطَّلَب، مثل: استغفر، واستجار، واستعاذ.. إلى آخره. والمعنى الثَّاني: التَّنكيرُ في كلمة ﴿نَارًا﴾ يعني أنَّه ألـحَّ في طَلَـبِ نَـارٍ أيِّ نَـارٍ مهمـا قَلَّـتْ، فـكان أنْ أتـاه الله - سـبحانَه - بالضِّيـاء، والضِّيـاءُ كمـا يقـول علماؤنـا: فَـرْطُ الإنـارة(١)؛ قـال تعالـى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونـس: ٥]، فلمَّـا أفـاضَ الله عليـه بهـذا الضِّيـاء رَاغَ منـه ولـم يَنتفِـعْ بـه، فذهـب الله بـه. وكلمـةُ ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ غيـرُ قولِنـا: «ذَهـبَ نُورُهـم، وأذهـبَ اللهُ نُورَهـم»؛ لأن الـذي في الآيـة أنَّـه -جـلَّ وتقـدَّس- هـو الـذي ذَهَـبَ بـه، وأنَّـه لا يَعـود أبـدًا، وأنَّهـم لا يَرجِعـون، وفي ذلـك مـن الغضـب مـا فيـه.

هـذه إشـاراتٌ إلـى شـيءٍ مـا في البنـاء اللُّغـوي، ثـم لاحِـظْ أنَّهـم كانـوا جامِديـن ليسـت لهـم أحـداثٌ كمـا في التَّشـبيه الثَّـاني، وأن أصحـاب التَّشـبيه الثَّـاني يَضعُـون أصابعَهـم في آذانهـم حَـذَرَ المـوت، وأنَّ البَـرقَ يـكاد يَخْطَـفُ أبصارَهـم.. إلـى آخـره، ولذلـك كان جُمودُهـم هـذا مقدِّمـةً لخَتْـمِ التَّشـبيه بقولـه تعالـى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقـرة: ١٨]، ومـا كان لهـذه الآيـةِ أن يُختـمَ بهـا التَّشـبيهُ الثَّـاني؛ لأنهـم كانـوا يَسـمعون ويُبصـرون، ولهـذا يمكـن أن نقـولَ: إن هذيـن التَّشـبيهين لِفريقَيْـن، وإنَّ كَلمـةَ ﴿مَثَلُهُمْ﴾ التـي

---

(١) قال بذلك جُلُّ المُفسِّرين.

تَرجِعُ إلى الذين اشْتَروا الضَّلالةَ بالهُدى تعني فريقَيْن، وأن كلمة ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ ﴾ ترجِعُ بهذا التَّشبيه إلى الذين ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ﴾، وأن قولَه تعالى: ﴿ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ يَرجِع إلى قوله -جلَّ شأنُه-: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦]، ولاحِظ الشَّبَه اللَّفظِيَّ بين ﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ و﴿ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾، وكأنَّ اللَّامَ النَّافِيةَ الدَّالَّةَ على التَّأبيد، والدَّاخِلةَ على الفعلِ المُضارِع الواقعِ خبرًا عن المسند إليه المتقدِّم على الخَبَر الفِعْلِيِّ، والمَسبوقِ بفاءٍ تُرتِّبُه على ما قبله أقولُ: كلُّ ذلك يُشير إلى الرَّبْطِ بين هؤلاء والمَثَل الأوَّل، ونَبرأُ إلى الله أن نقولَ في كلامِه كلمةً لا يرضاها، ولولا الرَّغْبةُ في فَتْحِ باب التدبُّر الذي أَمرَنا به لأمسكَ جَلالُ الكِتابِ ألسنتَنا وأقلامَنا.

وأوَّلُ ما يُلاحَظ في التَّشبيه الثَّاني أنه قال: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ ﴾ [البقرة: ١٩]، وقال علماؤنا: «المُراد: كذَوِي صَيِّب»[1]، وهذا واضِح. والصَّيِّبُ الذي هو المطرُ مِن أكرمِ ما يَسُوقُه ربُّ النَّاسِ إلى النَّاسِ وأفْضَلِه، وإذا رَجَعْنا إلى ما يقولونه في المطر الذي يأتيهم بعد سِنينَ تتابعتْ جَدْبًا لوجَدْنا أن القومَ لم تَسُرَّهم مَسرَّةٌ كصوتِ هذا المطر، ثمَّ إنَّ سيدَنا - صلواتُ الله وسلامُه عليه - شَبَّه ما بعثَه الله به بالغَيْثِ أصاب أرضًا[2]، ثم يفاجئنا هذا الصَّيِّبُ بمفاجأةٍ أخرجَتْه مِن

(١) يُنظر: الدُّرُّ المَصُون ١/ ١٧٩، واللُّباب في علوم الكتاب ١/ ٣٩٨، وحاشية الشِّهاب على تفسير البَيضاوي ١/ ٤١٨.

(٢) أخرجَ البُخارِيُّ بسَنَدِه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهُدى والعِلم كمَثَلِ الغَيْثِ الكثيرِ أصاب أرضًا؛ فكان منها نَقِيَّةٌ قَبِلَت الماءَ فأنبتت=

كلِّ ما يَسرُّ وأدخلَتْه في كلِّ ما يَسُوء، بحركةٍ لُغويَّةٍ خاطفة، وربما لا يَتنبَّه إليها كثيرٌ من النَّاس، وهي قولُه تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾، وأُرِيدُ بالحركة اللُّغويَّة دُخولَ حَرفِ الظَّرْف الذي هو «في» على ضمير الصِّيِّب، ولو حَذفتَ هذا الضميرَ لكان المعنى أن الصَّيِّبَ الذي هو المَطرُ كان في ظُلُماتٍ ورَعْدٍ وبَرْقٍ، وهذا هو الواقعُ، ومجيءُ هذا الضَّمير جعلَ الظُّلُماتِ والرَّعْدَ والبَرْقَ في الصِّيِّبِ الذي هو المطرُ، وكأن السَّماءَ لا تُمطِرُ ماءً فحَسْب، وإنَّما تُمطِرُ ماءً وفي هذا الماءِ ظُلُماتٌ ورَعْدٌ وبَرْق، ولذلك يكون هذا المشهدُ المَخُوفُ المُرعِبُ خَرجَ مِن رَحِمِ هذه الدِّلالة اللُّغويَّة الخاطفة.

وإشارةٌ سريعةٌ أخرى لحال الفَزَع الذي أصابهم، وهي قولُه تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ﴾ بدلَ «أنامِلَهم»، وفيها أن النَّاسَ قد ذهبَ بعقولهم ما فاجأهم به الصَّيِّبُ فكانوا يحاولون وَضْعَ أصابعهم بتمامها في آذانهم. وكلمة ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ قريبةٌ من قوله سبحانَه في المَثَل الأول: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، ولها دلالةٌ مختلفة؛ لأن أصحابَ المَثَل الأول لم يَمْشُوا في الإضاءة، وقد مشى هؤلاء، وكلُّ هذا الذي أقولُه في التَّحليل اللُّغويِّ سَهلٌ ومَيسورٌ لمن تدرَّب على هذا،

=الكلأَ والعُشْبَ الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماءَ فنَفعَ الله بها النَّاس؛ فشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرعُوا، وأصابت منها طائفةً أخرى إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كلأً؛ فذلك مَثَلُ مَن فَقُهَ في دين الله ونَفَعَه ما بعثني الله به فعَلِمَ وعَلَّم، ومَثَلُ مَن لم يَرفَعْ بذلك رأسًا ولم يَقبلْ هُدى الله الذي أُرسِلْتُ به»، صحيح البخاري، كتاب: العلم، باب: فَضْلُ من عَلِمَ وعَلَّمَ، حديث رقم (٧٩).

ولكنَّ الذي ليس بسَهل هو تفسيرُ هذه الأحوال عند المُشبَّه، وإذا كان التَّشبيهُ الأوَّلُ فيه إشاراتٌ تَرجِعُ به إلى الذين كفروا فإنَّنا نقول مِنْ غيرِ رَوِيَّةٍ إنَّ هذا تَشبيهُ الذين ذُكِرُوا بعدَهم في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨]، وليس عندي الآن في علاقة المَثَلِ بسُلوكِهم إلَّا أنهم قالوا آمنا وليسوا مؤمنين، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١]، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [البقرة: ١٣]، ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، أقول: ليس عندي الآن أكثرُ من القولِ بأن هذا الاضطرابَ الذي في مَثَلِ ذَوِي صَيِّبٍ هو صُورةٌ من هذا الاضطراب الذي عاشوه، أمَّا التَّفسيرُ الجُزئيُّ للصَّواعق، ووَضْعِ الأصابع في الآذان، وخَطْفِ البَرقِ للأبصار، والمرادُ بذلك وغيرِه، وكيف أُصنِّفُه على دقائقِ سُلوكهم فليس عندي عِلْمٌ بذلك، ومَن قال: «لا أدري» فقد أجاب.

سياق تشبيه سورة «النُّور»

أمَّا الذي في سُورة «النُّور» فهو طَريقٌ آخر، لم أُدْرِكْ منه إلَّا ما أقوله، وهو أنَّ الرِّجالَ الذين لم تُلْهِهِم تجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكْر الله، وأنَّ الله -سُبحانَه- يَجزِيهم أحسنَ ما عَمِلُوا ويَزيدُهم مِن فضله، وأنَّ هذا العطاءَ الأخيرَ هو الذي اجتذبَ إلى السِّياقِ ذِكْرَ أعمال الذين كفروا، وأنَّها كسَرَابٍ.. إلى آخره- أقول: هؤلاء الرِّجالُ الذين هذا شأنُهم إنما

أنتجهم دِينُ الله وشَرعُه ونُورُه الذي وَقَفتِ الآياتُ عند بيانِه، وصَوَّرتْ هذا البيانَ تصويرًا لم يتكرَّرْ في الكتاب العزيز، وإذا كانت أعمالُ الذين كفروا التي هي كالسَّرابِ جاءتْ مُقابِلةً للجزاء بالأحسنِ والزِّيادةِ مِن الفَضْل، فإنَّ الظُّلُماتِ التي بعضُها فوقَ بعضٍ هي التي أنتجت أصحابَ هذه الأعمال التي هي كالسَّراب، وقَابِلْ آيةَ النُّور بآية ظُلُماتِ البحرِ اللُّجِّي تَجِدْ طريقةَ تركيب المعنى تكادُ تقول لك: هذه مقابلاتٌ، وإنَّك بين ضربَيْن مِن ضروب الحياة والسُّلوك الإنساني: ضَرْبٍ يَعيشُ في نُورِ ما أنزله الله، وضَرْبٍ يَعيشُ منقطعًا عن هذا النُّور، وإذا كان مَثَلُ نُورِه -سبحانَه- كمِشكاةٍ.. إلى آخره فإنَّ مَثَلَ الظُّلُماتِ المُنقطعةِ عن نُورِه كمَثَلِ بَحرٍ لُجِّيٍّ.. إلى آخره. ضَعْ قولَه تعالى: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ [النور: ٤٠] بإزاء قولِه تعالى: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ [النور: ٣٥] تَجِدْ طريقةَ البناء واحدةً وإن اختلف المعنى أشدَّ الاختلاف: هذا بيانٌ لمَثَلِ نُورِ الله، وهذا بيانٌ لمَثَلِ الظُّلماتِ التي يعيش فيها الإنسان بمَعْزِلٍ عن دين الله، وضَعْ قولَه تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] بإزاء قوله -جل شأنه-: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠] تَجِدْ الرَّابطَ بين الصُّوَر، ثم ضَعْ قولَه تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥] بإزاء قولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: ٤٠]، هذا الرَّبطُ الواضِحُ بين مَثَلِ الظُّلُماتِ ومَثَلِ النُّورِ يَعني أنَّ الذي استضاء بنُورِ الله وعَمِلَ عملًا صالحًا جَزَاه الله بأحسنِ ما عَمِلَ وزاده مِن فضله، وأنَّ الذي انقطع عن نُور الله

فهو في هذه الظُّلُمات التي يَركَبُ بعضُها بعضًا، وعَملُه ضائعٌ منه فيها. وهذا ما عندي، ومَنْ يُعْطِ ما عندَه فقد وفَّى.

وبَقِيَ أن أُشِيرَ إلى واحدةٍ من أكاذيب زماننا، وهي أن الذَّاكِرِينَ لنُورِه وشَرْعِه يُسمِّيهم زَمَنُ العَجَايب «ظَلامِيِّين»، والمُبتعِدِين عنه هم «المُتنوِّرُون»!! وهذا لا يُزعِجُني؛ لأنه زَبَدٌ، وأخبرَنا ربُّنا أنَّ الزَّبَدَ يَذهبُ جُفَاءً وأنَّ ما يَنفَعُ النَّاسَ يَمكثُ في الأرض، وأنَّهم يُريدونَ أن يُطفئوا نُورَ الله والله مُتِمُّ نُورِه ولو كَرِهوا.. وعَجيبةٌ جدًّا كلمةُ إرادةِ إطفاءِ نُورِ الله، وكأنَّها نَزلَتْ لِمَا نحنُ فيه.

قلتُ: هذا مِن المَسكوتِ عنه وليس صريحًا في كلام أبي العبَّاس، وكلُّ الذي كان من أبي العبَّاس أنَّه ذَكَر ذِراعَي المُدِلَّة وذِراعَي البَذِيئة، وأنَّ هذا يقودُ قارئه إلى البحث عن مُناسبةِ المُدلَّةِ والبَذِيئة، وأنَّ هذا أفضى إلى نظائرِه في الكتاب العزيز، وأنَّ هذا النَّظيرَ أفضَى إلى ذِكْر تَشْبيهٍ عَقِبَ تَشبيهٍ مَفصُولًا بينهما بكلمة «أو»، وقد يَجِدُ اللَّاحِقُ في كلام السَّابقِ شيئًا غامضًا فيُبيِّنُه، أو إشارةً خاطفةً فيَقِفُ عندها، أو أنْ يُثيرَ كلامُ السَّابق في نَفْسِ اللَّاحقِ شيئًا فيُعالِجُه، سواء أراده السَّابقُ أو لم يُرِدْه.

ومِن طريفِ ذلك أن أبا العلاء سأل امرأ القيس وهو في الجَحيمِ، على لِسانِ ابن القَارِح، وقال له: إنَّ الناسَ اختلفُوا في قولِك كذا؛ فقال بعضُهم: أرادَ كذا، وقال بعضُهم: أرادَ كذا، وذَكَرَ له ثلاثةَ آراء لا يُمكِنُ أن يكونَ امرؤ القيس أرادها كلَّها؛ لأنها مختلفة، فقال له امرؤ القيس: كلُّهم على صَواب[1]. يَعْنِي بهذا الجَوابِ: إنَّ مُرادِي ليس مُلزِمًا لمن يَقرأ شِعْرِي،

(١) أورد أبو العلاء المَعرِيُّ هذا الحوارَ في «رسالة الغُفران»، وبيانُه أن ابنَ القَارِحِ سأل امرأ القيس: أخبرني عن قولك: [من الطويل]

كَبِكْرِ الْمُقَانَاةِ الْبَيَاضِ بِصُفْرَةٍ =

وإنَّما له ما أردتُ، وله ما لم أُرِدْ، وأُضِيفُ: إنَّ له أيضًا ما أثارَه كلامِي في نفسِه مِن معنًى؛ لأنَّه لولا كلامي ما ثارَ في نفسِه هذا المعنى.

وأرى أن هذا هو طريقُ نُموِّ المعرفة، ومَنهَجُ قراءة اللَّاحقِ للسَّابق، وإلَّا لما صَحَّ للأخفشِ أن يقول: مات سِيبويه وهو أعلمُ بـ«الكِتَابِ» منِّي، وأنا الآن أعلمُ بـ«الكِتَابِ» منه[1]، ولا يُمكِن أن تكون أعلمَ بالكِتابِ مِن مؤلِّفِه إذا عَزَلْتَ ما يُثيرُه الكِتابُ في نفسِك مِن أفكار.

=ماذا أردتَ بـ«البِكْر»؛ فقد اختلف المتأوِّلون في ذلك؛ فقالوا: البَيْضَةُ، وقالوا: الدُّرَّةُ، وقالوا: الرَّوْضَةُ، وقالوا: الزَّهْرةُ، وقالوا: البَرْدِيَّةُ؟!

وكيفَ تُنْشِدُ: «البَياضِ» أم «البَياضَ» أم «البَياضُ»؟!

فقال له امرؤ القيس: كلُّ ذلك حَسَنٌ، وأختار «البَياضِ» بالكَسْر. يُنظر: رسالة الغفران، ص ٣١٤.

ومُرادُ شيخنا أبو موسى بقوله: «وذَكَرَ له ثلاثةَ آراء لا يُمكِنُ أن يكونَ امرؤ القيس أرادها كلَّها؛ لأنها مختلفة» هو ما ذكره ابنُ القَارِحِ مِن الوُجوه الإعرابيَّة في كلمة «البَيَاض».

(١) كرَّر شيخُنا أبو موسى سَوْقَ هذه العبارةِ منسوبةً إلى الأخفش في كتابه «مدخلٍ إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص ٧»، وقد بحثتُ عنها فيما تيسَّر لي فلم أقع عليها، وكلُّ ما وجدتُه في مسألة «الأعلم بكتاب سيبويه» أنَّ أبا الفضل الرِّياشِيَّ قرأ كتاب سيبويه على المازني؛ فكان المازنيُّ يقول: «يَقرأ عليَّ كتابَ سِيبويه وهو أعلمُ به مِنِّي»، يُنظر: النُّجوم الزَّاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣/ ٣٦.

وبفَرْض وجود هذه المقالة فإن عِلَّة إثباتِها للأخْفَش- وهو الأخْفَشُ الأوسط: سَعِيد ابنُ مَسْعَدة - هي صِلتُه الوُثْقَى بسيبويه، وأنه كان يُقرأ عليه «الكِتَابُ» بعد موت سيبويه، وفي ذلك يقول السِّيرافي: «وأما الأخْفَشُ فهو من مشهورِي نَحْوِيِّي البصرة، وهو أحذقُ أصحابِ سيبويه، وهو أَسَنُّ منه فيما يُرْوَى، ولَقِيَ مَنْ لَقِيَه سِيبويه من العلماء، والطَّريقُ إلى كِتاب سِيبويه الأخْفَشُ؛ وذلك أنَّ كِتابَ سِيبويه لا نَعلَمُ أحدًا قرأه على سِيبويه، ولا قرأه عليه سِيبويه، ولكنَّه لمَّا ماتَ سِيبويه قُرِئَ الكِتابُ على أبي الحسن الأخْفَش، وكان مِمَّن قرأه أبو عُمَرَ الجَرْميُّ وأبو عُثمانَ المَازنيُّ»، أخبار النَّحْوِيِّين البصريِّين، ص ٣٩ (بتصرُّفٍ يسير).

تحدَّث أبو العبَّاس في وجوهٍ مِن التَّشبيهِ سَكتَ عنها البلاغِيُّون، وسَكتَ عن أشياءَ تحدَّث فيها البلاغِيُّون، وأوَّلُ ما يَلْفِتُ فيما سَكتَ عنه وتحدَّثوا فيه هو أنَّ شَواهدَ التَّشبيهِ الكثيرةَ التي ذَكَرها فيها كلُّ أقسام التَّشبيه عند البلاغيين؛ فيها: المُفْرَدُ، والمُركَّبُ، والتَّمثِيلُ، وتَشْبيهُ الحِسِّيِّ بالحِسِّي والعَقلِيِّ بالحِسِّي، والقَريبُ المُبتذَل، والبَعيدُ الغَرِيب، والصَّريحُ، والضِّمْنِيُّ، والمُرسَلُ، والمؤكَّدُ.. إلى آخره، ولكنَّ أبا العبَّاس كان مُنصرِفًا عن هذه التَّقسيمات، ولو أرادها وطلَبها لوجدَها؛ لأنَّها قريبةٌ مِن كلِّ مَن يَفهَمُ الشِّعر، وقد رأيتُه وهو يَشرَحُ معانِيَ الشِّعر يُشِيرُ إلى ضُروبٍ مِن المجاز كانتْ مِن أواخرِ ما كَتب البلاغِيُّون، ورأيتُه يَصِلُ إليها بسُهولةٍ شديدةٍ جدًّا.

ذَكَر قولَ امرئ القيس: [من الطويل]

كَأَنَّ أَبَانًا فِي أَفَانِينِ وَدْقِهِ   كَبِيرُ أُنَاسٍ فِي بِجَادٍ مُزَمَّلِ(١)

وأشار إلى أنه يَحتمِلُ معنيَيْن؛ أحدُهما: أن يكون المرادُ أنَّ المطرَ أحاط بالجَبَل إحاطةَ البِجَاد - الذي هو الثِّيابُ المُخطَّط - بكَبيرِ أُناسٍ مُزَمَّل، أي: مَلفُوفٍ بثِيابه. ومعروفٌ أنَّ كلمة «مُزَمَّل» وَصفٌ لكلمة «كَبِيرُ» التي هي خبرُ «كأنَّ»، والأصلُ أن يكونَ «مُزَمَّل» مرفوعًا تابعًا للموصوفِ في إعرابِه، ولكنَّه جاء بالجَرِّ لمُجاورَتِه كلمةَ «بِجَادٍ»، هذا وَجهٌ، والوجهُ الثَّاني: أن يكونَ المرادُ أنَّ الذي أحاط بالجَبَلِ خُضْرةُ النَّبات، ويكونَ

(١) في ديوانه، ص٢٥. و«أَبَانُ»: اسمُ جَبَل، وهما أَبَانَانِ؛ أبيضُ وأَسْوَدُ، وكلاهما مُحدَّدُ الرأسِ كالسِّنَان. يُنظر: مُعجَم البلدان ١/ ٦٢.

«الوَبْل» الذي هو المطرُ مُرادًا به النَّبات، وعُبِّر عن النَّبات بالمطر؛ لأنه سَبَبُه، وقد جاء هذا في كلامِهم، واعتبروا أنَّ الذي في السَّحابِ هو أَسْنِمَةُ الإبِل، وذلك في قول الشَّاعر: [من الرجز]

أَسْنِمَةُ الآبَالِ فِي سَحَابِهِ(١)

والذي في السَّحابِ ماءٌ، ولمَّا كانت الأَسْنِمَةُ - أعنِي: سِمَنَها - عن الماءِ تكونُ عَبَّر بالأَسْنِمَةِ عن الماء، وهذا وَجهٌ آخرُ مِن وُجوه المجاز المُرسَل وعلاقَةٌ أخرى؛ لأن التَّعبيرَ بالماءِ عن النَّباتِ تَعبيرٌ بالسَّبَب عن المُسبَّب، والتَّعبيرُ بالأَسْنِمَةِ عن الماءِ تَعبيرٌ بالمُسبَّب عن السَّبب، وذكر أبو العبَّاس مع ذلك قولَه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ٣٦]، أي: عِنبًا يَؤولُ إلى الخَمْر»(٢).

وهكذا رأينا أبا العبَّاس يَذكُر المجازَ المُرسَل، وإن كان لم يُسمِّه، ويَذكُر بعض علاقاته بسهولةٍ شديدة؛ لأن هذا المجازَ وهذه العلاقاتِ كلُّ ذلك في الشِّعر وفي معنى الشِّعر، وما دام القارئُ قادرًا على إدراك معنى الشِّعر فهو قادرٌ على إخراج كلِّ هذا، وكلُّ فُنونِ البلاغة ساكنةٌ في الشِّعر، وكانت أقربَ إلى ألسنةِ الباحثين في معاني الشِّعر، وجَرتْ ألسنتُهم ببعضِها قبل أن تَجرِيَ بها ألسنةُ الباحثين عن القواعد.

---

(١) أورده السكاكي في مفتاح العلوم ص ٣٦٥، والقزويني في الإيضاح ص ٢٠٨، ولم ينسبه أحد منهم، والبيت بتمامه:

أَقْبَلَ فِي الْمُسْتَنِّ فِي رَبَابِهِ ... أَسْنِمَةُ الآبالِ فِي سَحَابِهِ

(٢) يُنظر: الكامل ٣/ ٦٨ - ٦٩.

أمَّا الذي ذَكَرَه وسكتوا عنه فهو تقسيمُه التَّشبيهَ مِن جهةِ المعنى إلى تَشبيهٍ فيه إفراطٌ، يَعنِي: مبالغة، وتَشبيهٍ مُقتصِد، وتَشبيهٍ مُقارِب، وتَشبيهٍ بعيد.

والتَّشبيهُ المُقتصِدُ هو المُقتصِدُ في الإفراط؛ حتَّى يكونَ هناك مكانٌ للتَّشبيه القريب. والبَعيدُ هو المُشكِلُ الذي يَحتاج بيانُه إلى شرح، ووَصَفَه بأنه «أَخْشَنُ الكلام»؛ مِن الخُشُونة[1].

وأنا لا أُريدُ أن أُفضِّلَ طريقًا على طريق؛ لأن تقسيمَ البلاغيين المؤسَّسَ على أركان التَّشبيه، وتَوزِيعَ مباحثِه على المُشبَّه والمُشبَّه به والوَجْه والأداة كلُّ ذلك لا يُستغنَى عنه، وإنَّما أُريدُ أن أضعَ اليدَ على تقسيمٍ آخرَ لرجلٍ وَصَفَه أبو الفَتْح بن جِنِّي بأنه جَبَلٌ مِن جِبالِ العِلْم[2]، وهؤلاء لا يجوزُ أن نَتْرُكَ في كلامِهم شيئًا يُمكِنُ أن يُنتفَعَ به، وأن نَضُمَّ كلامَهم إلى كلام غيرهم؛ حتَّى يكون هناك تكامُلٌ في طرائق الأئمَّة.

ذَكَر أبو العبَّاس مِن التَّشبيهِ المُفرِطِ قولَ بَكْرِ بنِ النَّطَّاح يَمدحُ أبا دُلَفٍ القاسمَ بنَ عيسى: [من الطويل]

لَهُ هِمَمٌ لا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا ... وَهِمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَلُّ مِنَ الدَّهْرِ
لَهُ رَاحَةٌ لَوْ أَنَّ مِعْشَارَ جُودِهَا ... عَلَى الْبَرِّ صَارَ الْبَرُّ أَنْدَى مِنَ الْبَحْرِ

---

(١) يُنظر: الكامل ٣/ ٩٥.

(٢) وصفه ابنُ جِنِّي بذلك عقب سَوْقِه مَذهَبَه في أن عامِلَ النَّصْبَ فيما بعد «إلَّا» في الاستثناء هو نَاصِبٌ يدلُّ عليه مَعقودُ الكلام؛ قال: «وهذا وإنْ كان مَذهبًا مَدخولًا عندنا، وهو بضِدِّ الصَّوابِ الذي هو مَذهَبُ سِيبويه، فقد قال به رَجُلٌ يُعدُّ جَبَلًا في العِلم، وإليه أَفْضَتْ مقالاتُ أصحابنا، وهو الذي نَقلَها وقَرَّرها، وأجرى الفُروعَ والعِلَلَ والمقاييسَ عليها»، سر صناعة الإعراب ١/ ١٤٦.

وَلَوْ أَنَّ خَلْقَ اللهِ فِي مَسْكِ فَارِسٍ ... وَبَارَزَهُ كَانَ الْخَلِيَّ مِنَ الْعُمْرِ[١]

قولُه: «لَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا» مِن الإفراطِ المُبالَغِ فيه، وليس فيه تَشبيه، وليس هناكَ إنسانٌ له صِفَةٌ لا مُنْتهى لكِبارِها؛ لأَنَّ الذي لا مُنتهى لجلالِ صفاتِه هو الحَقُّ وحدَه، ولعلَّ الشَّاعرَ نظرَ إلى هذا.

وقولُه: «وهِمَّتُه الصُّغْرَى أَجَلُّ مِنَ الدَّهْرِ» تَشبيهٌ يَفْضُلُ فيه المُشبَّهُ على المُشبَّه به؛ كقولِهم: «أشجعُ من الأسد، وأجودُ من البحر، وأمْضَى من السَّيف»، والإفراطُ هنا ظاهر؛ لأن الدَّهرَ لا يُغالَب؛ لأنه هو الذي أهلك عادًا وثَمودَ والقُرونَ الأُوَلَ، وهو الذي أشابَ الصَّغيرَ وأفنى الكبيرَ.

والتَّشبيهُ بالدَّهر نادر، وإنما يُشبَّه به ليس مِن ناحية جلالِه، وإنَّما يُقال: «هُوَ كالدَّهْرِ مَبْثُوثًا حَبَائلُه»[٢]، يعني: لا يَنجُو منه أحدٌ.

وقولُه: «لَهُ رَاحَةٌ...» إلى آخره، أصاب الشَّاعرُ في اختيار كلمة «رَاحَة» بدلَ «يَد» أو «كَفّ» أو «يَمِين»؛ لأن الكريمَ تُعطِي رَاحتُه بأَرْيَحِيَّة، وكأَنَّك تُعطِيه الذي أنتَ آخِذُه[٣]، ثم كَدَّرَ ذلك بالإفراط، وذَكَر مِعشَارَ جُودِها، والبَرُّ لم يُذكَرْ بالجُود، وإنَّما الذي انطبعَ في قلوب النَّاس هو جُودُ البَحْر،

---

(١) يُنظر: الكامل ٣/ ٩٥.

(٢) هو مِن قولِ سَلْم الخَاسِر يَعتذرُ إلى المَهدِي: [من البسيط]

وَأَنْتَ كَالدَّهْرِ مَبْثُوثًا حَبَائِلُهُ ... وَالدَّهْرُ لَا مَلْجَأٌ مِنْهُ وَلَا هَرَبُ

العُمدَة في محاسِنِ الشِّعرِ وآدابِه ونقدِه ٢/ ١٧٨.

(٣) هو مِن قولِ زُهيْر بن أبي سُلْمَى: [من الطويل]

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

وهو في ديوانه بشرح أبي العباس ثعلب، ص ١٤٢.

وبَكْرُ بنُ النَّطَّاح يَعكِسُ ما طُبِعَتْ عليه النُّفوس، وانتقل مِن مبالغةٍ إلى مبالغة، وكأنَّ هذا الوَلَعَ بالمبالغة استفزَّه فنهضَ خيالُه يَخْلُقُ هذه الصُّورةَ العجيبةَ التي في البيت الثالث.

ولم أجدْ في كلام أبي العبَّاس ما يدلُّ على رأيه في هذا الشِّعر، ولا ما يدلُّ على رأيه في الإفراط؛ لأنَّه لم يَضعْ أصولًا للاستحسان، ولكنَّه ذَكرَ أبياتًا للنَّابغة الذُّبْيانيِّ في رِثاءِ حِصْنِ بنِ حُذيفَةَ بنِ بَدْرٍ الفَزارِيِّ، فيها إفراطٌ لا يقلُّ عن إفراط أبيات بَكْر بن النَّطَّاح، وقدَّم لها بكلام أستطيع أن أَفْهمَ منه رأيَه في الإفراط؛ قال أبو العبَّاس: ومِن عجيبِ التَّشبيهِ في إفراط، غيرَ أنه خَرجَ في كلام جيِّد، وعَنِيَ به رجلٌ جليلٌ، فخَرجَ من باب الاحتمالِ إلى باب الاستحسان، ثم جُعِلَ لجودةِ ألفاظِه، وحُسْنِ رَصْفِه، واستواءِ نَظْمِه، في غَايةِ ما يُستحسَنُ - قولُ النَّابغةِ يَعنِي حِصْنَ بنَ حُذَيْفةَ ابنِ بَدرِ بنِ عَمْرٍو الفَزارِيَّ: [من الطويل]

يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ ... وَكَيْفَ بِحِصْنٍ وَالْجِبَالُ جُنُوحُ
وَلَمْ تَلْفِظِ الْمَوْتَى الْقُبُورُ وَلَمْ تَزُلْ ... نُجُومُ السَّمَاءِ وَالأَدِيمُ صَحِيحُ
فَعَمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ جَاءَ نَعِيُّهُ ... فَظَلَّ نَدِيُّ الْحَيِّ وَهْوَ يَنُوحُ(١)

والكلامُ الذي قدَّم به أبو العبَّاس كلامٌ جيِّد، ويَدلُّنا على أن الشَّاعرَ الجيِّدَ الصَّنْعةِ يَشغَلُنا بجودة صَنْعتِه عن شيءٍ في الشِّعر لولا هذه الجودةُ لأنكرناه، وأفهمُ من هذا أيضًا أن بَكرَ بن النَّطَّاح لم يَشغَلْنا بجودة الصَّنْعةِ عن الإفراطِ المُسْتَثْقَل في أبياته، ويكادُ يكونُ قولُه: «لَهُ هِمَمٌ لَا مُنْتَهَى

(١) الكامل ٣/ ٩٦.

لِكِبَارِهَا» خاليًا من أيِّ صَنْعة، حتَّى إنه لمَّا عوَّل على الخيال جاء بما لا يَرتقِي إلى درجة الإعجاب، وكأن أبا العبَّاس بكلامه في أبيات النَّابغة دلَّ على رأيه في كلام ابن النَّطَّاح.

وجَيِّدةٌ جدًّا كلمتُه التي قال فيها: «خَرجَ من باب الاحتمالِ إلى باب الاستحسان»، يَعْني: لم يَعُدِ الشِّعرُ يُقاس بمقاييس الاحتمال، الذي هو القُرْبُ من الواقع أو البُعْدُ عنه أو الجُنُوحُ في الإفراط؛ لأن الشَّاعرَ الجليلَ نَقلَك إلى عالَم الشِّعر، الذي هو عالَم التَّجويد والتَّثقيف، فصِرْتَ إلى الاستحسان، والاستحسان وحده.

ووَصْفُ أبي العبَّاس للنَّابغة بأنه «رَجُلٌ جليل» وَصْفٌ جيِّد؛ لأن النَّابغةَ اتُّهِمَ وضاقتْ عليه الأرضُ وهو مظلوم.

ومِن الواجب أن نَقِفَ عند كلام أبي العبَّاس، الذي هو «جودة ألفاظه، وحُسْن رَصْفِه، واستواء نَظْمِه»، وكلمةُ «جودة ألفاظه» كلمةٌ عامَّة، بيَّنها أبو العبَّاس بحُسْن الرَّصْف واستواء النَّظْم، ثمَّ إنَّ حُسْنَ الرَّصْف واستواءَ النَّظْم يمكن الاستغناءُ بإحداهما عن الأخرى، وكأن الكلامَ سينتهي عند استواء النَّظْم، الذي جعلَه عبدُ القاهر «عمودَ البلاغة»؛ فما هو حُسْنُ النَّظْم في هذه الأبيات؟ مِن السَّهْلِ جدًّا أن نُكرِّرَ كلام أبي العبَّاس، ومن الصَّعْبِ جدًّا أن نَبحثَ عن حقيقةِ معناه في الشِّعر؛ فأيُّ شيءٍ رآه في هذه الأبيات ووَصَفَه باستواء النَّظْم؟ أقول: هذا سؤالٌ لا يجوز الهروبُ منه، وليس له جوابٌ إلا جوابٌ واحدٌ، وهو التَّفتيشُ في الشِّعر؛ لاستخراجه منه.

وأوَّلُ ما أجِدُه في هذه الأبيات هو أن النَّابغةَ ابتعدَ عن النَّاس الذين أَهالَهم مَوتُ حِصْن، ولم يَجعلْ نفسَه منهم، وإنَّما كان شاعرًا يرى ويَرصُد، وليس باكيًا يَنُوحُ مع مَنْ ناح، وهذا مِن شأنه أن يُقرِّب إليه القارئ؛ لأنَّه يرى الشاعرَ بعيدًا عن التَّهويل، وإنَّما التَّهويلُ كان من غيره، وليس هو إلا حاكيًا يَحكِي ما رأى وما سمع، وهذا هو سِرُّ ضمير الغَيْبة وصيغةِ المضارع الدَّالَّة على أن هؤلاء القومَ تكرَّر منهم هذا وتَجدَّد، وكأنهم لا يزالون يقولون.

وقولُه: «ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُم»، ارتقتْ هذه الجملةُ بالشِّعر إلى المستوى الذي يَنقُلُك من باب الاحتمال إلى باب الاستحسان؛ لأن نُفوسَ القوم لم تُساعِدْهم على أن يُتمُّوا الجملة وأن يأتوا بالخَبَر الذي تَتمُّ به الفائدة، وتمامُ الجملةِ: «حِصْنٌ هَلَك، أو مات»، وكلمةُ «ثمَّ» في قوله: «ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُم» فيها معنى أنهم استبْعَدوا ما وجدوا، وأن رَفْضَ الألسنةِ أن تَنطِقَ ببقية الجملة بعد أنْ بَدَأَتْها عجيبٌ وغريبٌ ولا عهدَ لهم به، وذكر الشَّيخُ الطَّاهرُ ابنُ عاشور أن هذا المعنى مِن مُبتكَراتِ النَّابغة[1]، وهو كما قال، وإن كان إنكارُ النُّفوسِ لبعض ما تَجِدُ - لهَوْلِه وبشاعتِه - أمرًا قديمًا وجزءًا من الفِطْرة، تراه عند العامَّة كما تراه عند الخاصَّة، أمَّا هذا التَّصويرُ الذي هو «يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ» فهو مِن مُبتكَرات النَّابغة، وكذلك ما بعدَه مِن قولِه: «فَكَيْفَ بِحِصْنٍ...» إلى آخره.

---

(١) ديوان النَّابغة الذُّبيانيِّ بشَرح الشَّيخ محمَّد الطَّاهر ابن عاشور، ص ٧٤، وعبارةُ الطَّاهرِ هي: «وهذا معنًى لم أَرَهُ لغيرِ النَّابغة».

ومِن المُهمِّ أن نُحْسِنَ فَهْمَ قولِهم: «فَكَيْفَ بِحِصْنٍ»، وهذه الفَاءُ يَغلِبُ عليها أن تكونَ فاءَ استئناف؛ لأن القومَ وهم في هذه اللَّحظةِ التي أخرَسَهم فيها هَولُ النَّبأ حتى تجمَّدتْ ألسنتُهم وأَبَتْ نفوسُهم أن تَنطِقَ بما يَتِمُّ به الكلامُ - كأنَّما غَشِيتْهم حالةٌ من التِّيهِ وافتقادِ العقل، ووَهِمُوا أن هذه الكائناتِ مِن حولِهم لم تَنْهدَّ، وهذا يعني أن حِصْنًا لم يَمُت؛ لأنه لو ماتَ لقامتْ قيامتُها؛ لأنها لا تَبقَى مع الحُزنِ كما يبقى النَّاس، وإنَّما حُزْنُها يَعني مَحْوَ ماهيَّاتِها، فلا تبقى الجبالُ قائمة، ولا يبقى الموتى في قبورهم، ولا تبقى نجومُ السَّماء، ولا تبقى السَّماء، وإنَّما كلُّ ذلك يَدخُلُ بابَ العَدَم.

حالةُ الوَهْمِ هذه، وحالةُ الغَشَيَان، وذَهَابُ الوَعْي الذي اعترى الجماعةَ الذين يقولون: «حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ» كانت استراحة، وهم عَاشُوها آمِلِينَ ألا يكون ما حَبسَ ألسنتَهم صحيحًا.

ويُلاحَظُ أن الجُملَ الأربعةَ التي هي أساسُ هذه الأبيات وحَوامِلُ معناها وقعتْ كلُّها حالًا، ونُسِقَتْ نَسَقًا واحدًا، وأوَّلُها: «والجِبَالُ جُنُوحُ»، وهي جملةٌ حاليَّة، عُطِفَ عليها: «ولَمْ تَلْفِظِ المَوْتَى القُبُورُ»، ثم عُطِفَ عليها: «ولَمْ تَزُلْ نُجُومُ السَّمَاءِ»، ثم عُطِفَ عَقِبَها: «والأَدِيمُ صَحِيحُ»، ولو أَبْعَدتَ هذه الجملَ الحاليَّة لم يَبْقَ في الأبيات شيءٌ، وكأن هذه الجملَ الحاليَّة هي معاقِدُ المعاني عند أمثال النابغة، ثم إن الجملةَ الأخيرةَ التي جاءت بعد ذَهَاب الغاشِية، وبعدَما جاء نَعِيُّه، ووَعَى مَن كان ذَاهِلًا، هي جملةٌ حاليَّةٌ أيضًا، وهي قولُه: «وَهْوَ يَنُوحُ»، وهي خُلاصَةُ هذه الأبيات، وكلُّ هذا مِن حُسْنِ الرَّصْف واستواء النَّظْم الذي أراده أبو

العبَّاس، مع ضرورةِ حضورِ شيءٍ إذا غاب فقد غاب معه كلُّ شيء، وهو أن مُرادَ علمائنا باستواء النَّظْم أو حُسْنِ الرَّصْف، ومُرادَ عبد القاهر بالنَّظْم الذي يَرجِعُ إليه الإعجاز، والذي لو فتَّشْتَ كلَّ ما بين السَّماءِ والأرض لِتَجِدَ ما يَفْضُلُ به كلامٌ كلامًا فلن تَجِدَ غيرَه، إنْ كنتَ مِن ذَوِي الألباب - أقول: المُرادُ بالنَّظْم الذي هذا شأنُه عند عبد القاهر، واستواءِ النَّظْم وحُسْنِ الرَّصْف الذي هو صَنْعةُ الرَّجُلِ الجليلِ الذي خَرجَ بك من باب الاحتمال إلى الاستحسان، كما يقول سيدنا أبو العبَّاس: هو: نَظْمُ هذا المعنى الذي بين يدَيْك في هذه الألفاظ التي بين يدَيْك؛ فالنَّظْمُ في أبيات «يَقُولُونَ حِصْنٌ» ليس هو رَصْفَ الكلمات وجَعْلَ بعضِها بسببٍ من بعضٍ وهي بَعيدةٌ عن هذا المعنى، وإنما المُرادُ جَعْلُ بعضِها بسببٍ مِن بعض للإبانة عن هذا المعنى، الذي هو: «والجِبَالُ جُنُوحُ» و«لَمْ تَلْفِظِ المَوْتَى القُبُورُ».. إلى آخره. وإذا قلتَ: إنَّ آيةَ الكُرْسِيِّ بلغَ النَّظْمُ فيها غايةَ الجودة فلا معنى لهذا إلا أنَّ رَصْفَ الكلماتِ واستواءَ نَظْمِها للإبانة عمَّا أبانتْ عنه آيةُ الكُرْسِيِّ بلغ غايةَ الجودة، ولو قلتَ: «حُسْنُ الرَّصْف واستواءُ النَّظْم في (قِفَا نَبْكِ)» فلا معنى لهذا ألبتةَ إلا براعةُ امرئ القيس في إدارة ألفاظِه على معانِيه التي دارتْ عليها ألفاظُه في هذه القصيدة.

والخطأُ الفادِح الذي أفسدَ كلَّ شيءٍ أننا جَرَّدْنا حُسْنَ الرَّصْفِ واستواءَ النَّظْمِ من المعنى الذي تَلبَّسَ به هذا الرَّصْفُ وهذا النَّظْم، وليس هناك أيُّ وصفٍ للرَّصْفِ والنَّظْمِ إلا وهو مُتلبِّسٌ ببيانٍ أبان عنه النَّظْم والرَّصْف، ولا بُدَّ مِن ملاحظةِ واعتبارِ شَطْرَي النَّظْم؛ الشَّطرِ الأوَّل

(تَوخِّي معانِي النَّحْو بينَ معانِي الألفاظ)، والشَّطرِ الثَّاني (على وَفْقِ الأغراض والمقاصد)، فإذا شَغلَنا الشَّطرُ الأوَّلُ عن الثَّاني كنَّا مع تحليل اللُّغة وكنا ذاهِلينَ عن معاني القُلوب والعُقول التي أبانَ التَّحليلُ اللُّغويُّ عنها، يَعْنِي: كنَّا مع شَطْر البلاغةِ اللِّسانيِّ ذَاهِلينَ عن شَطْرِها الرُّوحِيِّ.

ذَكَر الشَّيخُ الطَّاهرُ ابنُ عاشور أنه نَقَل عن نُسخَةِ أبي جعفر: «والجِبالُ على حالِها لم تُهدم»، ثم قال: ولعلَّه مأخوذٌ من قولِهم: «جَنَحَت النَّاقةُ والجَمَلُ»، إذا بَرَكَتْ؛ لأنَّها إذا بَرَكَتْ تَمِيلُ على أحدِ شِقَّيْها فتَعتَمِدُ على جَوانِحِها، وهي الضُّلُوعُ ممَّا يَلِي الصَّدرَ فهي جَانِح. و«جُنُوح» جَمْعُ «جَانِح»، مثل «قُعُود» جَمْعُ «قاعِد»، أي: والجِبَالُ مُستقرَّةٌ في أماكِنها[1]. انتهى كلام الطاهر.

وحِصْنُ بنُ حُذيفَةَ الذي قال فيه النَّابغةُ هذه الأبياتَ التي كانت من مُبتكراتِه، كما يقول الطَّاهر، ولم يَرْثِ النَّابغةُ أحدًا بأفضلَ منها هو الذي قال فيه زُهَيرٌ قصيدتَه الرَّائعةَ التي مَطلَعُها: [من الطويل]

صَحَا القَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهْ

كان مِن خبره أنَّ عمرو بن هِندٍ؛ الطَّاغيةَ القَديمَ، أراد أن يَضُمَّه إليه، وأن يُقْطِعَه ناحيةً مِن مُلْكِه يكونُ حِصْنٌ واليًا عليها، وكان لحِصْنٍ عند هذا الطاغية ثَأرٌ، فلمَّا جاءَته رسالةُ عمرو بن هند تَعْرِضُ عليه مُلْكَ ناحيةٍ مِن مُلْكِه رَدَّ عليه حِصْنٌ ردًّا مَلأ قلبَ زُهيرٍ والنَّابغةِ حُبًّا له؛ لأنه قال له: «لم أكنْ يومًا ما أَفْرَغَ لحَربِك كاليوم، ولم أكنْ أَكثرَ عُدَّةً لقتالِك كاليوم،

(١) ديوان النَّابغة الذُّبيانيِّ بشَرحِ الطَّاهر ابن عاشور، ص ٧٤.

وليس لي حِصْنٌ إلا السُّيوفُ والرِّماح، وأنا لك بالفَضَاءِ»، فراغَ عمرو بنُ هِندٍ من مُواجهتِه(١)، وقد ذَكَر زُهيرٌ في مديحِه بعضَ عباراتِه التي ردَّ بها على الطَّاغية(٢)، وكان زُهيرٌ مُولَعًا بالأُنُوفِ الأَنِفَة، وكأنَّ النَّابغةَ رأى لهذا الرَّجُل، الذي يُمثِّل أَنَفَةَ العربيِّ العريق، حقًّا عليه فجَوَّدَ هذه الأبيات.

قلتُ: إن أبا العبَّاس ذَكَرَ هذه الأبياتَ وقدَّم لها بقوله: «ومِن عَجيبِ التَّشبيهِ في إفراط»، والتَّشبيهُ فيها خَفِيٌّ جدًّا كما ترى، ولا أراه فيها إلا في شيءٍ واحد، وهو أنَّه لمَّا قال: «والجِبَالُ جُنُوح»، و«لَمْ تَلْفِظِ المَوْتَى القُبُورُ».. إلى آخرِ ما ذَكر، كان ذلك مُتضمِّنًا تشبيهَ الجبالِ والأرضِ والنُّجومِ وأديمِ السَّماءِ بالحَيِّ العَاقلِ الذي يَعرِفُ أقدارَ الرجال، وأنَّ قَدْرَ حِصْنٍ، ومَكانةَ حِصْنٍ، وحِمَايةَ حِصْنٍ لقومِه مِن طُغيانِ جَاهِلٍ أَحْمَقَ، نَفَذَتْ إلى هذه الكائنات، وأنَّها تَبكِيه كما يَبكِيه أهلُه وعشيرتُه.

أُذكِّر بأنَّ أبا العبَّاس بَنَى كتابَه - الذي يُقدِّم فيه لُغتَنا إلى أجيالنا - على ما جُبِلَتْ النَّفسُ على حُبِّه؛ مِن الحِكَم، والأمثالِ، والخُطَبِ الشَّريفةِ، والرَّسائلِ البليغةِ، والشِّعرِ المُسْتَحْسَن، وأنَّ هذا هو أيْسَرُ الطُّرُق وأقربُها إلى

---

(١) ذَكَر هذا الخبرَ أبو العبَّاس ثَعْلَبٌ في تمهيده لقصيدةِ زُهيرِ بن أبي سُلْمَى: «صَحَا القَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهْ»، يُنظر: ديوان زُهَير بن أبي سُلْمَى بشَرحِ أبي العبَّاس ثعلب، ص ١٢٤.

(٢) مِن أبيات زُهيرٍ التي اشتملتْ على عبارات حِصْنٍ قولُه: [من الطويل]

أَبَى الضَّيْمَ وَالنُّعْمَانُ يَحْرِقُ نَابَهُ ... عَلَيْهِ فَأَفْضَى وَالسُّيُوفُ مَعَاقِلُهْ

ديوان زُهير بن أبي سُلْمى بشَرحِ أبي العبَّاس ثعلب، ص ١٤٣.

وقولُه: «فَأَفْضَى» أي: صَارَ في فَضاءٍ. يُريد قولَ حِصْنٍ: «وليس لي حِصْنٌ إلا السُّيوفُ والرِّماح، وأنا لك بالفَضَاءِ».

النُّفوس، وأنَّ تقديمَ اللُّغة إلى الجِيلِ الجديدِ بالطَّريقةِ الخَشِنَةِ والغامضةِ مِن أهمِّ أسبابِ انصرافِ الجِيل عن لُغتِه، والانصرافُ عن اللُّغةِ معناه انصرافٌ عن القِيَمِ والثَّقافةِ والحضارة؛ لأنَّ اللُّغةَ وِعَاءُ ذلك كلِّه، ووِعَاءُ كلِّ ما تحرصُ كلُّ أمَّةٍ عاقلةٍ على أن تُسْكِنَه في نُفوسِ أجيالها.

وتَعْجَبُ حين تَجِدُ أنَّ المولى - جلَّ وتقدَّس - إنَّما دعا خلقَه إلى دار السَّلام مِن خلال ما جُبِلَت النُّفوسُ على حُبِّه، وهو الفطرة، فكان الدِّين فِطرةَ الله التي فَطرَ النَّاسَ عليها، واللُّغةُ بثَراءِ ما تَحمِلُه مِن مَعانٍ وقِيَمٍ إنسانيةٍ وتاريخيةٍ هي الرِّباطُ المُمْسِكُ بأبناء الأمَّة، والحرصُ على اللُّغة بهذا المفهوم يَعنِي الحرصَ على رِباطٍ لا يَزُولُ ولا يَحُول.

نَوْحُ الحمام

ومِن أبوابِ الشِّعرِ التي ذكرها أبو العبَّاس، ولها فَضْلُ تَعلُّقٍ بالطَّبْعِ الإنسانيِّ، ما ذكره في نَوْحِ الحَمام وتَطريبه وغِنائه، وهذا البابُ الذي هو نَوْحُ الحَمام وتَطريبُه وغِناؤه له خُصوصيَّةٌ لا تُوجَدُ لغيره، وهي فِعْلُه في النَّفْس الإنسانيَّة مع خُلُوِّه التَّامِّ مِن أيِّ دلالةٍ معنويَّة، وإنَّما هو صَوْتٌ مَحْضٌ، والعجيبُ أن الحمامةَ حين تُذكَرُ في الشِّعرِ يكون لها مَذاقٌ مُتميِّز، سواء كانت حَمامةً تُغنِّي، أو حَمامةً عَزَّها شَرَكٌ، أو حَمامةً عُلِّقَتْ على كَبِدِ شَاعرٍ.. أو ما شئتَ، ويُدهِشُك هذا السِّرُّ الخَفِيُّ بين القَطَا ولو كانتْ واحدةً تَرِدُ شَريعةَ الماء، أو كانت جماعة، وبين هذه النَّفْسِ الإنسانيَّة.

وقد انتقلَ أبو العبَّاس مِن ذِكْرِ حَنينِ الإبلِ إلى غِناءِ الحَمَام، وحَنِينُ الإبلِ له ارتباطٌ بالشِّعر، حتَّى إنهم قالوا: «لَا تَدَعُ العَرَبُ الشِّعْرَ حتَّى

تَدَعَ الإبلُ الحَنِينَ»(١)، والإبلُ لا تَدَعُ الحَنِينَ أبدًا؛ لأنه جزءٌ من فِطْرَتِها، والشِّعرُ جُزءٌ من فِطْرَةِ هذه العرب.

يقول أبو العبَّاس: «والبَعِيرُ يَحِنُّ أشدَّ الحَنِينِ إلى أُلَّافِهِ إذا أُخِذَ مِن القَطِيع»، ثم ذَكَرَ قولَ الشَّاعر: [من الكامل]

لا تَصْبِرُ الإِبِلُ الْجِلَادُ تَفَرَّقَتْ ... بَعْدَ الْجَمِيعِ وَيَصْبِرُ الإِنْسَانُ

وقولَ الآخَر: [من الطويل]

وَهَلْ رِيبَةٌ فِي أَنْ تَحِنَّ نَجِيبَةٌ ... إِلَى إِلْفِهَا أَوْ أَنْ يَحِنَّ نَجِيبُ؟

ثمَّ يقول: «وإذا رَجَّعَتِ الحَنِينَ كان ذلك أحسنَ صَوتٍ يَهتاجُ له المُفارِقون، كما يَهتاجُون لنَوْحِ الحَمَام ولالْتِيَاحِ البُرُوق»(٢) انتهى كلامُه. والشِّعرُ الذي هو تَرْجِيعٌ لهذه الثَّلاثة هو الشِّعرُ الخالِص، وهو مِن أكرَمِ الشِّعر، وكان الواجبُ أن يكونَ بين يَدَي الجِيل ديوانُ حَنِينِ الإبلِ مَشروحًا، وديوانُ غِناء الحَمَام، وديوانُ الصَّبْوةِ التي يُثيرُها لَمْعُ البُرُوق، ولا أظنُّ أن طالبَ عِلمٍ يَبْعُدُ عن يدَيْه ديوانٌ من هذه الثَّلاثة.

ذَكَر أبو العبَّاس في غِنَاءِ الحَمامِ قولَ عَوْفِ بن مُحَلِّم: [من الطويل]

---

(١) أورده ابنُ رَشِيقٍ مَرويًّا عن سيدنا رسول الله ﷺ، يُنظر: العُمدَة في محاسِنِ الشِّعرِ وآدابه ونَقدِه ١/ ٣٠، وساقَه الغَزالِيُّ ضمنَ حَديثِ قِسْمَةِ الغَنائم يومَ حُنَيْن، يُنظر: إحياء علوم الدِّين ٥/ ٤٥٦، وأصلُ الحديث خاليًا مِن هذا القولِ أخرجه مُسْلِمٌ في صحيحِه، كتاب: الزَّكاة، باب: إعطاء المؤلَّفةِ قلوبُهم على الإسلام، حديث رقم (١٠٦٠).

(٢) الكامل ٣/ ٩١ - ٩٢.

أَلَا يَا حَمَامَ الْأَيْكِ إِلْفُكَ حَاضِرٌ وَغُصْنُكَ مَيَّادٌ فَفِيمَ تَنُوحُ
أَفِقْ لَا تَنُحْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ فَإِنَّنِي بَكَيْتُ زَمَانًا وَالْفُؤَادُ صَحِيحُ
وَلُوعًا فَشَطَّتْ غَرْبَةً دَارُ زَيْنَبٍ فَهَا أَنَا أَبْكِي وَالْفُؤَادُ قَرِيحُ(٣)

هذا شِعرٌ لا يَقرؤه قارئٌ إلا أعاد قراءتَه، ويكادُ يقول: «احفظوني»، وفيه رُوحٌ إنسانيَّةٌ بالِغةُ الرُّقِي، وهي بَثُّ المعنى الإنسانيِّ فيما تُخاطِبه، ثمَّ بعد هذا البَثِّ تُقارِبُه، ويَزدادُ القُرْبُ بالنُّصحِ وبَثِّ الشَّكوى خلالَ هذا النُّصْح، والنَّفسُ التي تُسقَى بهذا وهي خَضراءُ لا تَقبَلُ أن يُدخِلَها شيطانٌ في دائرة الحِقْدِ الأسودِ على بني الإنسان، أو على بني الوطن، حتى ترى المذابحَ تَدورُ على تُراب البلاد، وأبناؤها يَذبَحُ بعضُهم بعضًا.. هذا شيءٌ وذلك شيءٌ آخر.

وراجِعْ قولَه: «إِلْفُكَ حَاضِرٌ وَغُصْنُكَ مَيَّادٌ فَفِيمَ تَنُوحُ»، وقولَه: «فَشَطَّتْ غَرْبَةً دَارُ زَيْنَبٍ» يعني: ضاعَ الأملُ وذَهب الحُلْم. وأنا لا أفهم «دَار زَيْنب» بالدِّلالةِ الحرفيَّة؛ لأن الشِّعرَ ليس كذلك، وإنَّما أَفْهَمُ منها أنه شَطَّ ما كان يَرتَجِي، فقد فَتَحْتَ آفاقًا من المعانِي لا حُدودَ لها؛ لأنَّ لكلِّ مِنَّا «زَيْنَب»، ولو كانت «زَيْنَب» واحدةً مُعيَّنةً لماتَ الشِّعرُ يوم ماتَتْ.

---

(٣) الكامل ٣/ ٩٢.

وذَكَر أبو العبَّاس أبياتًا في غِناءِ الحَمَام لحُمَيْدِ بنِ ثَوْرٍ، منها: [من الطويل]

تَغَنَّتْ عَلَى غُصْنٍ عِشَاءً فَلَمْ تَدَعْ ... لِنَائِحَةٍ فِي نَوْحِهَا مُتَلَوَّمَا
إِذَا حَرَّكَتْهُ الرِّيحُ أَوْ مَالَ مَيْلَةً ... تَغَنَّتْ عَلَيْهِ مَائِلًا وَمُقَوَّمَا
عَجِبْتُ لَهَا أَنَّى يَكُونُ غِنَاؤُهَا ... فَصِيحًا وَلَمْ تَفْغَرْ بِمَنْطِقِهَا فَمَا
فَلَمْ أَرَ مِثْلِي شَاقَهُ صَوْتُ مِثْلِهَا ... وَلا عَرَبِيًّا شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمَا[1]

هذا غيرُ الشِّعرِ الأوَّل؛ لأنه لم يَجْعَلِ الحَمامَ من النَّاس، وإنَّما أبقاه وتكلَّم عن صَوتِه.. الشَّاعرُ هناك لَامَه على النَّوحِ والإلْفُ حاضرٌ والغُصْنُ مَيَّاد، وهنا ذكر أنَّ غِناءها تَهتاجُ له كلُّ نائحة.

وغِناءُ الحَمامِ ونَوْحُه بمعنًى واحد، والغِناءُ على الغُصْنِ المَيَّادِ معنًى مشترَك؛ هناك يقول: «وغُصْنُكَ مَيَّادٌ» وهنا يقول: «غَنَّتْ عَلَيْهِ مَائِلًا وَمُقَوَّمَا».

وقولُه: «عَجِبْتُ لَهَا أَنَّى يَكُونُ غِنَاؤُهَا.. إلى آخره» هو أهمُّ ما في نَوْحِ الحَمَام؛ لأنه وَصْفٌ خالصٌ لصَوتِه، وأنَّه فَصِيحٌ يُبِينُ عن نفسِه أَبْيَنَ إبانةٍ ولم يَفتَحْ فَمَه، وهذا موضِعُ العَجَب؛ ولذلك كانت أبياتُ حُمَيدٍ مُختلفةً في جهة التَّناوُل عن أبياتِ عَوف بن مُحلِّم، وهذا البيتُ الذي عَجِبَ مِن فصاحتِها وهي مُطْبِقةٌ فَمَها ولم تُحرِّكْه هو الذي فتحَ باب المعنى لقوله:

فَلَمْ أَرَ مِثْلِي شَاقَهُ صَوْتُ مِثْلِهَا ... وَلا عَرَبِيًّا شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمَا

وهذا مِن أحسنِ ما قِيلَ في هذا الباب.

---

(١) الكامل ٣/ ٩٢ - ٩٣.

وذَكَر أبو العبَّاس أبياتًا قالوا: إنَّها لأبي تمَّام، منها: [من الوافر]

وَلَـمْ أَفْهَـــمْ مَعَانِيَهَـا وَلَكِـنْ وَرَتْ كَبِدِي فَلَـمْ أَجْهَـلْ شَـجَاهَا

فَكُنْـتُ كَأَنَّنِـــي أَعْمَـى مُعَنًّـى يُحِـبُّ الْغَانِيَـاتِ وَمَـا يَرَاهَـا[١]

وهـذا مـن التَّشبيه النَّادر، وفيـه بيـانٌ جيِّـد؛ لأنـه يَعنِـي أن هـذا الصَّـوتَ الـذي لـم يَفْهَـمْ مَعانِيَـه أيقـظَ مِـن مُستكِنٍّ نَفْسِـه وَلَعًـا بشـيءٍ كوَلَـعِ المُعنَّـى بحُـبِّ الغانيـاتِ ومـا رآهـا.

وكلُّ هـذا صريـحٌ في أن الصَّـوتَ الـذي تَسـمَعُه الأُذنُ ولـم تَعقِلْ منه النَّفسُ شيئًا لـه هـذا الأثـرُ البالـغُ في النَّفسِ الإنسانيَّة، وهـذا كلامُ الشُّعراء الذيـن هـم صُنَّـاعُ البيـان، وهُـم أعلـمُ بخَوافِيـه، وهـذا صريـحٌ في أن النَّغَـمَ والرَّنِيـنَ في الشِّعر جزءٌ مـن الشِّعر ولـه مشـاركتُه التـي لا تُنكَـر في تأثيـر الشِّعر، وكذلـك في البيـانِ كلِّـه.

وقـد ذَكَـر أبـو العبَّـاس خَـبرًا عـن رجـلٍ صالـح كان يَسـمعُ صـوتَ «الفارسِـيَّة» تَنُـوحُ فيَبْكِـي وهـو لا يَفْهَـمُ مـا تقُـول، وأنَّ بعـضَ المُحْدَثِيـن سَـمِعَ غِنـاءً بخُراسَـانَ بالفارسِـيَّة فلـم يَـدْرِ مـا هُـو، غيـرَ أنَّـه شَـوَّقه؛ لشَـجَاه وحُسْـنِه[٢].

ولا شـكَّ أن هـذا مِـن المسكوتِ عنـه في الـدَّرسِ البلاغـي؛ لأننـا تَعلَّمْنـا أن نسـتخرجَ دلالاتِ الألفـاظ والتراكيـب، وضربنـا صَفحًـا عـن أثـرِ النَّغَـم والرَّنيـن، وأُضِيـفُ إلـى هـذا شـيئًا؛ هـو أن التَّـلاؤمَ الصَّـوتيَّ المَحْـضَ مِـن

(١) الكامل ٣/ ٩٢ - ٩٣.

(٢) يُنظر: الكامل ٣/ ٩٤.

غير نَظَرٍ إلى أيِّ دلالةٍ معنويَّةٍ تُفْهَمُ منه عَدَّه العالِمُ النَّحْويُّ الذي جاء عَقِبَ أبي العبَّاس بلا مُهْلةٍ، وهو عَلِيُّ بن عِيسى الرُّمَّانيُّ، الذي وُلِدَ قبل وفاة أبي العبَّاس بتِسْعِ سِنين - أقول: عَدَّ عَلِيُّ بن عيسى الرُّمَّانيُّ التَّلاؤمَ الصَّوتيَّ وَجْهًا مِن وُجُوه الإعجاز، بمعنى أنَّ مَنْ له حِسٌّ يُدرِك به جلالَ الصَّوت إذا سَمِعَ القرآنَ وهو لا يَفهَمُ شيئًا من العربيَّة أدرك أن هذا الذي يَسمَعُه خَارِقٌ للعادة، وقَاطِعٌ للأطماع، وقاهرٌ للقُوَى والقُدَر، وهذا معنى أنه وَجهٌ من وُجوه الإعجاز.

وذَكَر عَلِيُّ بن عيسى أن التَّلاؤمَ الصوتيَّ في الشِّعر يَبلُغُ مداه في مِثلِ قولِ الشاعر: [من الطويل]

رَمَتْنِي وَسِتْرُ اللهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا عَشِيَّةَ آرَامِ الْكِنَاسِ رَمِيمُ
رَمِيمُ الَّتِي قَالَتْ لِجِيرَانِ بَيْتِهَا ضَمِنْتُ لَكُمْ أَلَّا يَزَالَ يَهِيمُ

وذَكَر أن المسافةَ التي بينَ هذا وبينَ أبعدِ الكلامِ عن التَّلاؤم؛ كالذي تَسْمَعُه في قولِ الشاعر: [من الرجز]

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرِ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

أبعدُ منها بين أبياتِ «رَمِيم» وأيِّ تلاؤمٍ في أيِّ آيةٍ في الكتاب العزيز[١].

وهذا كلامٌ جيِّدٌ جدًّا، وقد أَشْبَعَه الرَّافِعيُّ بيانًا[٢]، كما أشبَعَه الدكتور/ مُحمَّد عبد الله دراز، واعتبرَ هذا التَّنظيمَ الصوتيَّ أَوَّلَ ما يُفاجِئُ الأُذنَ بالإعجاز[٣].

---

(١) يُنظر: النُّكَت في إعجاز القرآن، ضمن كتاب «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن»، ص ٩٤ - ٩٧.

(٢) يُنظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ١٤٥ - ١٥١.

(٣) يُنظر: النَّبأ العظيم، ص ١٠١ - ١٠٤.

وهذه الأبياتُ التي ذكرها عَلِيُّ بن عيسى مَثَلًا لبُلوغِ الشِّعرِ الغايةَ في التَّلاؤم الصَّوتيِّ ذَكَرها أبو العبَّاس ولكنْ ليس لهذا الغرض، وإنَّما هي من المُختارِ الحَسَن.

وذَكَر أبو العبَّاس في سياق ذِكْر الحَمَام أن الذَّكَر يُقال له: «حمامة»، ويُفرَّقُ بينه وبين الأنثى باسم الإشارة، فيُقال: «هذا حمامة»، وكذلك يُقال: «دجاجة»، للذَّكَر والأنثى، ويُفرَّق بينهما باسم الإشارة، ويُقال: «بَقَرَة» للذَّكَر والأنثى، ويُقال: «بَطَّة» للذَّكَر والأنثى، ويُقال للحمامة: «غَنَّتْ» كما يُقال: «نَاحَتْ»؛ وذلك أنَّ صَوتَها صَوتٌ حَسَنٌ غيرُ مفهوم، فيُشبَّه مرَّةً بالغِناء ومرَّةً بالنِّياحَة. وهذا يَعنِي أنَّ «غَنَّت الحَمامةُ ونَاحَتْ» مِن المجازِ القائمِ على التَّشبيه.

واسْمُ صَوتِها الحقيقيُّ هو «سَاقَ حُرٍّ»، يَعنِي حِكايةَ الصَّوت؛ قال حُمَيْدُ بنُ ثَوْر: [من الطويل]

وَمَا هَاجَ هَذَا الشَّوْقَ إِلَّا حَمَامَةٌ   دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ تَرْحَةً وَتَرَنُّمَا

قال أبو العبَّاس: أمَّا قولُ حُمَيْدٍ: «دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ» فإنَّما حكى صوتَها(١).

شِعْرُ المُحْدَثِين

كان أبو العبَّاس شديدَ العنايةِ بشِعر المُحْدَثِين، وكان يُعقِّبُ على كلِّ بابٍ اختارَ فيه شِعرًا من شِعر القُدماء باختيارِ شِعرٍ مِن شِعر المُحْدَثِين، وكان يرى أن الشِّعرَ يُستجاد لجودته وليس للزَّمن الذي قِيلَ فيه؛ قال

(١) يُنظر: الكامل ٣/ ٩٣.

في هـذا: «وليسَ لِقِـدَمِ العَهـدِ يُفضَّـلُ القائـلُ، ولا لِحَدَثـانِ عَهـدٍ يُهْتَضَـمُ المُصِيـبُ، ولكـنْ يُعطَـى كلٌّ مـا يَسـتحِقُّ»(١).

ثـمَّ إنَّـه كان يُصـادِقُ شُـعراءَ زمانِـه ويُخالِطُهـم، وكان البُحـتريُّ يَرْفَـعُ الكُلْفَـةَ بينه وبيـن أبي العبَّاس ويُداعِبُه في شِعره(٢)، وقـد مَدَحَـه ابـنُ الرُّومِـيِّ بقصيدةٍ زادتْ على التِّسعينَ بيتًـا، وكانـتْ في ديـوان ابـن الرُّومِـيِّ المخطوط، وقـد نَشـرَها الشَّـيخُ عُضَيْمَـة في مقدَّمـة كِتـاب «المُقتضَـب» وقـال: «مِـن النَّـادر أن يَمْـدحَ أهـلُ الزَّمـان نَحْويًّـا يَعيشُ بينهـم»(٣)، وكلُّنـا يَعلَـمُ هِجـاءَ البُحـتريِّ لأبـي العبَّـاس ثَعْلَـب، وكذلـك هِجاء ابـنِ الرُّومِـيِّ، وكان قـد يَبِـسَ الثَّـرى بيـن ثَعْلَـب والمُـبرِّد.

---

(١) الكامل ١/ ٢٨.

(٢) أفاد شيخُنا ذلك ممَّا جاء في مقدِّمة الشَّيخ عُضَيْمة التي صَدَّر بها تَحقيقَه كتابَ «المُقتضَب».

وممَّا داعبَ فيه البُحتريُّ أبا العبَّاس في شِعْرِه قولُه: [من الخفيف]

فَأْتِنَـا يَـا مُحَمَّـدَ بْـنَ يَزِيـدٍ   فِـي اسْـتِتَارٍ كَـيْ لَا يَـرَاكَ الرَّقِيـبُ

وممَّا مَدَحَه فيه قولُه: [من الكامل]

مَـا نَـالَ مَـا نَـالَ الأَمِيـرُ مُحَمَّـدٌ   إِلَّا بِيُمْـنِ مُحَمَّـدِ بْـنِ يَزِيـدِ

يُنظر: مقدِّمة «المُقتضَب» ١/ ٢٧ - ٢٨، ٤٣.

(٣) عِبارةُ الشَّيخ عُضَيْمة مَنقولـةٌ بالمعنى، ونَصُّها: «وقلَّما ظَفِرَ نَحْويٌّ بقصيدةِ مَدحٍ طويلةٍ كهذه القصيدةِ مِن شاعرٍ كبيرٍ مُعاصِرٍ لـه».

وقصيدةُ ابن الرُّوميِّ المذكورةُ مَطلعُها: [من الرمل]

طَرَقَـتْ أَسْـمَاءُ وَالرَّكْـبُ هُجُـودُ   وَالْمَطَايَـا جُنَّـحُ الأَذْوَادِ قُـودُ

وممَّا جاء فيها من مدح المُبرِّد قولُه:

يَـا أَبَـا الْعَبَّـاسِ إِنِّـي رَجُـلٌ   فِـيَّ عَمَّـنْ عَانَـدَ الْحَقَّ عُنُـودُ

وَيَمِينًـا إِنَّـكَ الْمَـرْءُ الَّـذِي   حُبُّـهُ عِنْـدِي سَـوَاءٌ وَالسُّجُودُ

يُنظر: مقدِّمة «المُقتضَب» ١/ ٤٤، ٤٧.

وقد ذكرتُ وأُكرِّرُ أن هَمَّ أبي العبَّاس هو أن يَنقُلَ الشِّعر بكلِّ ما يَحمِلُه مِن حِكَمٍ وآدابٍ وقِيَمٍ وتاريخٍ إلى الجيل الجديد؛ لأن هذا ضَروريٌّ في تَرابُط الجِيل وبناء هُوِيَّتِه الحضاريَّة والتاريخيَّة، وأن هذا ليس خاصًّا بالمتخصِّصين؛ لأن المعرفة بالقِيَمِ والتَّاريخِ والحضارةِ مَعرفةٌ واجبةٌ لكلِّ أبناء الأمَّة، حتى ولو كانوا مُتخصِّصين في الرِّياضيَّات وعلوم الطِّبِّ وعلوم الهندسة؛ لأن هذا يَرجِعُ إلى بناء الإنسان بناءً يتلاءم مع ماهِيَّة الأمَّة.

ولأبي العبَّاس كلمةٌ جيِّدةٌ في شِعر المُحْدَثين، وأنَّ هذا الشِّعرَ الحديثَ أقربُ إلى لُغتِهم، وهُم أقدَرُ على أن يتمثَّلوا به، وأقدَرُ على أن يَقتبِسُوا منه في لُغتِهم وخِطابِهم وخُطَبِهم ومُكاتباتِهم؛ قال في مقدِّمة حديثه عن شِعر المُحْدَثِين: «هذه أشعارٌ اخترناها مِن أشعار المُولَّدِين حَكيمةٌ مُستحسَنةٌ، يُحْتاجُ إليها للتَّمثُّل؛ لأنها أَشْكَلُ بالدَّهْر، ويُستعارُ مِن ألفاظِها في المخاطَبات والخُطَب والكُتُب»[1].

وعلينا أن نَذكُرَ أنه واحدٌ مِن أشياخ النَّحو، وأنَّ كلامَ المُولَّدِين والمُحْدَثِين لا يُحتجُّ به عند النُّحاة، ولكنَّه نظر إلى شِعر المُحْدَثِين من زاوية التَّربية اللُّغويَّة والبيانيَّة للجيل الجديد، وقولُه: إنَّ لُغةَ المُحْدَثِين «أَشْكَلُ بالدَّهر» كلمةٌ نفيسة؛ لأن قوَّة شَبَه شِعْرِ الزَّمانِ بالزَّمانِ الذي قِيلَ فيه تَجعلُه أقربَ إلى أن يُحفَظَ ويُتمثَّلَ به ويُتغنَّى به، وهذا مطلوبٌ في تقويم الطِّباع، واللُّغةُ الأشْكَلُ بالدَّهرِ أقربُ إلى الألسنة.

---

(١) الكامل ٢/ ٣.

وأبو العبَّاس في هذا يقول لنا: كلُّ زَمانٍ له لُغتُه، وخَاطِبُوا الجيلَ الجديدَ في علمِ أُمَّتِه بلُغتِكم أنتم التي هي لُغَةُ زمانِه، والتُّراثُ ليس اللُّغة، وإنَّما هو المَضامِينُ التي تُعبِّر عنها هذه اللُّغة؛ فانقلوه إلى أجيالكم بلُغتِكم، وهذا أكثرُ محافظةً عليه؛ لأن لُغتكم ستُعِينُ الجِيلَ على استيعابِه وفَهْمِه وتَمثُّلِه، والذين يعتقدون أن التُّراثَ هو كُتُبُ التُّراث عليهم أنْ يُراجِعوا أنفسَهم؛ لأن التُّراثَ هو ما في هذه الكُتُب مِن العِلْم؛ فاكتبوا هذه المَضامِينَ بلُغتِكم التي هي لُغَةُ زمانِكم، واذكروا أن الشُّيوخَ الأوائلَ قالوا: «كِتابُ سِيبويه كتابٌ جيِّد ولكنَّه كُتِبَ على شَريطةِ زمانِه»، ولهذا كَتَبه السِّيرافِيُّ وغيرُ السِّيرافِيِّ، ولم يَقُلْ أحدٌ: إن السِّيرافِيَّ فرَّط في التُّراثِ؛ لأنه نَقَلَ مضمونَ كتاب سيبويه إلى لُغتِه التي هي لُغَةُ الجِيلِ الذي يُعلِّمُه.

ولارتباط اللُّغة بالزَّمان كَتب فقهاؤنا الفِقهَ في كلِّ زمانٍ بلُغةِ هذا الزَّمان، وهكذا النُّحاةُ وغيرُهم، ولو كانت الكُتبُ هي التُّراثَ لكان هؤلاء جميعًا مُضيِّعِين للتُّراث، وهذا ظاهرٌ، وأنَّهم رفضوا أن يجعلوا التُّراثَ العِلمِيَّ حَبِيسَ كُتُبٍ كُتِبَتْ على شريطة زمانِها، ورَحِمَ الله أبا العبَّاس؛ فقد كان يَضَعُ بقولِه: «أَشْكَلُ بالدَّهْر» الهِنَاءَ مَواضِعَ النُّقْبِ[1]، وحركةُ الحديثِ

(١) «الهِناءُ»: ضَرْبٌ مِن القَطِرَان، و«النُّقْبُ»: جَمْعُ «النُّقْبَة»، وهي أوَّلُ ما يَبدُو مِنَ الجَرَبِ قِطَعًا مُتفرِّقة. العين (هـ ن أ) ومقاييس اللغة (ن ق ب).

وأصْلُه أنه كان إذا جَرِبَ البَعِيرُ تعهَّدَ الطَّالِي جَسدَه كلَّه بالقَطِرَان حتى يَنْحَسِمَ الدَّاءُ. ومن ذلك قولُ دُرَيدِ بن الصِّمَّة يَصِفُ الخنساءَ وهي تَهْنَأُ بعيرًا لها: [من الكامل]

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ... كَالْيَوْمِ طَالِيَ أَيْنُقٍ جُرْبِ

مُتَبَذِّلًا تَبْدُو مَحَاسِنُهُ ... يَضَعُ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقْبِ

والبيتان في ديوانه، ص ٤٣ – ٤٤.=

والقديمِ حركةٌ دائمةٌ ودائبة؛ فهناك حَديثٌ مع كلِّ شُروقِ شَمْس، وهناك قديمٌ مع كلِّ غُروبِ شَمْس، وهذا نظامٌ كونِيٌّ لا يستطيع أحدٌ أن يقاوِمَه.

وهذه اللَّفتةُ المختصَرةُ من أبي العبَّاس في وَصْف الحديث، وأنَّه «أَشْكَلُ بالدَّهْر، ويُستعارُ مِن ألفاظِه في المخاطَبات والخُطَب والكُتُب» - هذه اللَّفتةُ تنطوي على إشارة؛ هي ضرورةُ الدَّرْس الجادِّ الذي يُحدِّد الفَرْقَ بين القديم والحديث، وعبارةُ أبي العبَّاس خُطوةٌ في هذا الباب، وليس هناك زَمنٌ مُحدَّدٌ يمكن اعتبارُه قديمًا وزَمنٌ يمكن اعتبارُه حديثًا؛ لأن الزَّمانَ غيرُ قارٍّ، وحديثُ اليوم قديمُ الغد، ودراسةُ الفُروقِ تَعنِي أنها دراسةٌ مستمرَّةٌ وتَرْصُدُ التَّغييرَ الذي يَحدث في الكلام، مع ثُبوتِ ثوابتَ لا تتغيَّر؛ كالنِّظام الإعرابي ودلالة الألفاظ، ومع ذلك نَجِدُ فَرْقًا بين لُغةِ محمَّد عبده ومحمَّد الغزالي، هذا فضلًا عن الذي بين العصر الجاهليِّ والعصر العباسيِّ أو العصر الأندلسيِّ.. إلى آخره، وكلُّها أحدثتْ تغييرًا في الأساليب لم يُدرَسْ بعدُ، فضلًا عن أن يُواكَب.

وعصورُ تطوُّر الأساليب ليست هي عصور الأدب، وإنَّما يُوضَعُ لها ضابِطٌ آخر، الأصلُ فيه هو حُدوث التَّغيير، وقد سَبقَ ذِكرُ كلماتٍ لأبي العبَّاس وبشَّارِ بن بُرْد في الفَرقِ بين لُغةِ المُولَّدين ولُغةِ الأعرابِ الخُلَّص، وهذا كلُّه من المسكوت عنه.

=وقد تُجُوِّز في استعمالِه فصَارَ يُضرَبُ مَثَلًا لكُلِّ مَن يَضَعُ الشَّيءَ مَوْضِعَه، يُنظر: جمهرة الأمثال ٢/ ١٨٩.

الأخذُ والزِّيادة

كان أبو العبَّاس يهتمُّ بالصُّورة التي يأخذُها شاعرٌ عن شاعرٍ ثم يُضيف إليها شيئًا؛ ذكَرَ أبياتَ أبي العتاهِيَة في مدح هَارونَ الرَّشِيد، التي منها: [من الوافر]

أَمِينَ اللهِ أَمْنُكَ خَيْرُ أَمْنٍ ... عَلَيْكَ مِنَ التُّقَى فِيهِ لِبَاسُ
تُسَاسُ مِنَ السَّمَاءِ بِكُلِّ فَضْلٍ ... وَأَنْتَ بِهِ تَسُوسُ كَمَا تُسَاسُ
كَأَنَّ الْخَلْقَ رُكِّبَ فِيهِ رُوحٌ ... لَهُ جَسَدٌ وَأَنْتَ عَلَيْهِ رَاسُ(١)

وكلمةُ «أَمِينَ الله» كلمةٌ جليلةٌ ومُنجِيَة، لو فَطِنَ إليها مَن يُوَلِّيه اللهُ أمرًا؛ لأن معناها أن الله جَعلَه أمينًا على خَلْقِه؛ فلا يَظْلِم، ولا يَنْهَب، ولا يَقْتُل، ولا يَخُون، ولا يَفْجُر في اليمين، وإنَّما يَحرِصُ على أن يكونَ أمينًا كما جعلَه اللهُ أمينًا. ومعنى «تَسُوسُ مِنَ السَّمَاء» أنَّك تَقضِي في النَّاس بقضاءِ الله، وتَسُوسُهم على وَجهٍ من السِّياسة الشرعيَّة التي كلُّها بِرٌّ. ومعنى «وَأَنْتَ بِهِ تَسُوسُ كَمَا تُسَاسُ» أنك تُطبِّق على نفسِك ما تُطالِب النَّاسَ به؛ فإذا كنتَ تَسُوسُ النَّاسَ نحوَ أمرٍ بدأتَ بسياسةِ نفسِك، فأنت تُسَاسُ كما تَسُوس، لا فَرْقَ بينك وبين النَّاس.

والمُهِمُّ البيتُ الثَّالث، وهو صُورةٌ خياليَّةٌ مَحْضَة تُخيِّل الخَلْقَ كلَّ الخَلْقِ رُكِّبَ فيه كلِّه رُوحٌ واحدة، لها جَسدٌ واحد، ورأسُ هذا الجَسدِ هو أميرُ المؤمنين؛ فهو رأسُهم الذي يُدبِّر ويُفكِّر.

---

(١) الكامل ٣/ ١١٠. وقولُه: «تُسَاسُ مِنَ السَّمَاءِ» أثبتَه شيخُنا: «تَسُوسُ مِنَ السَّمَاءِ»، ووجَّهَه على ذلك. وما في «الكامل» يُوافِقُ ما في ديوان أبي العتاهِيَة، ص ٢٣٣، وما في طبعة «الكامل» بتحقيق الدكتور محمد الدَّالي ٢/ ١٠٥٣.

وهـذه الصُّـورةُ رَاقَتْ عَلِيَّ بـنَ جَبَلَـة فأخذَهـا في مَديحِـه حُمَيْـدَ بـنَ عبـد الحميـد؛ قـال أبـو العبَّـاس: وزادَ في الشَّـرح والتَّرتيـب فقـال: [مـن السـريع]

يَرْتُــقُ مَـــا يَفْتُــقُ أَعْـــدَاؤُهُ وَلَيْـــسَ يَأْسُــو فَتْقَــهُ آسِــي
فَالنَّـاسُ جِسْـمٌ وَإِمَـامُ الْهُـدَى رَأْسٌ وَأَنْـتَ الْعَيْـنُ فِـي الرَّاسِ(١)

المعنـى مُختلـف؛ أبـو العتاهِيَـة يتكلَّـم في سياسـة البِرِّ، وعلـيُّ بـن جَبَلَـة يتكلَّـم في الفَتْـق والرَّتْـق والأعـداء والحـرب، ويبـدو أنَّ عَلِيًّـا كان في البيـت الأول ذا طُرْبةٍ ظَهـرتْ في هـذه الغِنائيَّـة والجناسِ الـذي بيـن «يَرْتُـق ويَفْتُـق»، وهـو جِناسٌ لاحِق، كمـا يظهـر في الجناسِ الـذي لَحِقَ بهـذا في الشـطر الثَّاني، والـذي بيـن «يَأْسُـو وآسِـي»، ثـمَّ إنـه اختصـرَ صُـورةَ أبـي العتاهِيَـة اختصـارًا شـديدًا، وبـدلَ كلمـةِ «كأنَّ» التـي جعلـت الصُّـورةَ الخياليَّـةَ في حَيِّـزِ القبـول هَجَـمَ علـيٌّ علـى هـذا المعنـى وقـال: «فَالنَّـاسُ جِسْـمٌ وَإِمَـامُ الهُـدَى رَأْسٌ»؛ وذلـك ليُضِيـفَ مـا زاده هـو، وهـو قولُـه: «وَأَنْـتَ العَيْـنُ فِـي الرَّاسِ»، وكان هـذا ضروريًّـا؛ لأنـه لا يُقـال: «رأسٌ» إلا لرئيس القـوم، فمـا كان لـ«علـيٍّ» أن يقـول لـ«حُمَيْـد»: «إنَّـك رأسُ النَّـاس»، وإنمـا جَعلَـه عَينًـا في الـرأس، يَحْـرُسُ بهـا إمـامُ الهُـدى مُلكَـه.

ولا أجِـدُ نُصْحًـا أنصحُ بـه طـلَّاب علـمِ البيـان والباحثيـن في هـذا الحَقْـلِ الشَّـريف؛ مِـن أسـاتذةٍ ومَـنْ هُـم دُونَهـم؛ لا أجِـدُ نُصْحًـا لهـم أَوْلَـى مـن البحـث الجادِّ عـن هـذا اللَّـونِ مِـن صَنْعـةِ الشِّـعر، التـي يَنظـرُ فيهـا الشَّـاعرُ إلـى صَنعـةِ شاعرٍ فتَرُوقُـه ويريـد أن تكـونَ في شِـعره، فيجتهـدُ في أن يُضيـفَ

(١) الكامل ٣/ ١١٠.

شيئًا أو أنْ يُعدِّل شيئًا أو أن يَحْذِف شيئًا، المُهِمُّ أن يُحْدِثَ هو صَنْعةً في هذه الصَّنْعة، فيكونُ الدَّارِسُ بين صَنْعتَيْن لشاعرين، اخترعَ أوَّلُهما صُورةً وأبدَعَها، وجاء الثَّاني ورَاقَتْه هذه الصُّورةُ فضَمَّ مجهودًا من صَنْعَتِه الشِّعريةِ إلى مجهودِ هذا الذي ابتكر، حتى تُنْسَبَ الصُّورةُ إليه بما فَعلَه وصَنَعَه وأضافَه.

ولاحِظْ أنَّك واجِدٌ قريبًا من هذا في المُتشابِه اللَّفظِيِّ في الكتاب العزيز، وكيف كان للسِّياقِ أثرُه في إضافةِ لفظة، أو حذفِ لفظة، أو تقديمٍ أو تأخير، أو تعريفٍ أو تنكير، واستخراجُ ذلك مِن أَغْمَضِ العِلمِ وأَمْنَعِه وأَمْتَعِه أيضًا.

المُبرِّد وأبو نُوَاس

كان أبو العبَّاس شديدَ العناية بالحَسَن بن هانئ، وكان كثيرًا ما يَضعُ شِعرَه بإزاء شِعر القدماء، والحَسَن جديرٌ بهذه العناية، ولو لم يكن صَدْرَ المُحْدَثِين فلا يجوز لأحدٍ أن يُبعِدَه عن الطَّبقة التي هي في الصَّدْر مِن أمثال البُحتريّ، وكأنَّه كان يَعلَمُ أنه شاعرٌ يَفرِضُ على النَّاس أن يَذكُروه؛ لِتفَوُّقِ شِعْرِه، ولأنَّه كان يَسْتفِزُّ النَّاس في كثيرٍ مِنْ شِعْرِه، وكان عالمًا بالقراءات، وقد قال الشَّافعيُّ: «هَمَمْتُ بأن آخُذَ القراءات عن الحَسَن ابن هانئٍ لولا ما عُرِفَ به»[1]، والشَّافعيُّ عالِمٌ جليلٌ مُحتاطٌ في عبارته؛ فقال: «ما عُرِفَ به»، حقًّا كان هذا الذي عُرِفَ به أو باطلًا.

---

(١) لم أَقِفْ عليه في كُتُب الشَّافعِيِّ، ولم يَلُحْ لي في كُتُبِ القدماء، وهو في: الوسيلة الأدبية ١/ ٧٣، والأعلام للزِّرِكْلِي ٢/ ٢٢٥، وعبارتُه: «لولا مُجُونُ أبي نُوَاسٍ لأخذتُ عنه العِلمَ».

وقد ذكر له أبو العبَّاس كثيرًا من الشِّعر الذي وَصفَ به الخَمْر، ولم يَتورَّعْ أبو العبَّاس عن ذِكْرِ ما يُستجاد مهما كان الرأيُ فيه، وهذا جيِّدٌ جدًّا ويَروقُني؛ أُحِبُّ الكلمةَ العاليةَ ولو مِن فَمِ شيطان؛ لأن الذي يَعنِيني هو عُلوُّ الكلمة وليس قائلُها، ولا يُغضِبْك هذا منِّي؛ فقد أنزل الله لنا في كتابه الذي يَتعبَّدُنا به، ويُخرِجُنا به من الظُّلُمات إلى النُّور كلامًا كثيرًا ليس من فَمِ الشَّيطان الأكبر الذي وَسْوَسَ لأبينا آدم، وإنَّما من أفواه أتباعِه مِن شياطين الإنس الذين أساءوا الأدبَ مع أنبياء الله، ووصفوهم بأنهم كَذَبَةٌ أو سَحَرَةٌ أو ما شِئتَ، ثم رَدَّهم كلامَ الذي خَلَقَهم، وقولَهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ووَصْفَهم كلامَه - سبحانه - بأنَّه أساطيرُ.. إلى آخره، لم يَحْجُبْ ربُّنا عنَّا شيئًا من ذلك، وإنَّما جعله قرآنًا يُتعبَّدُ به، ثم تُنْكِرُ عليَّ أن أقرأَ وأن أبحثَ عن الكلمة العالية ولو كانت من فَمِ شيطان! رَاجِعْ كلامَ أبي العبَّاس وكيف كان يُفتِّشُ في فَمِ عِمرانَ ابنِ حِطَّانَ عن الكلمة العالية، وأنا أَكْرَهُ عِمرانَ بنَ حِطَّان، وكأنَّه يَعِيشُ معي، وكأنَّه قَاتِلُ أبي؛ لأنَّ عِمْران هذا مَدحَ عبد الرحمن بن مُلْجَمٍ قاتل سيِّدِنا عليٍّ -كرَّم الله وَجهَه-، وأَحْسَبُ أن تُرابَ الأرض يَكرَهُه، وأن قبرَه الذي هو فيه كَارِهٌ له، وكل هذا شيءٌ والكلمةُ العاليةُ التي أخرجَها لِسانُه شيءٌ آخر، وكأن الله سبحانه وتعالى يقول لنا: ابحثوا عن الخيرِ في كلِّ جِهَة، حتَّى في جِهاتِ الشَّرِّ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يَخْلُق إنسانًا هو شَرٌّ مَحْضٌ، ولم أَجِدْ في صدري حرجًا وأنا أقرأ قولَ ضَابِئ بنِ الحَارِث البُرْجُمِيِّ الذي حَبَسه سيدُنا عُثمان؛ لأن لسانَه طال أعراضَ النَّاس،

فَهَمَّ ضَابِئُ بقَتْلِ عُثمانَ قبل زمن الفتنة، وأنا أُحِبُّ عُثمانَ كحُبِّي لعَلِيٍّ، وعُثمانُ ذو النُّورَيْن؛ فقال ضَابِئ: [من الطويل]

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَائِلُهْ(١)

وهذا مِن أوجزِ الكلامِ وأعلاه، ويُعبِّرُ عن أسوأِ هَمٍّ وأدناه، ولكنَّ سُلطانَ البيانِ على النَّفْس يَجعلُك تَحفَظُ: «وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَائِلُهْ». ومِن حَلائِله بِنتُ سيدِنا رسول الله ﷺ، ولا أَجِدُ في ذلك حَرَجًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى يُثِيبُنِي أجزلَ الثَّوابِ وأنا أقرأ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، و﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٥]، و﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]، و﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].. إلى آخرِ ما علَّمَنا ربُّنا به أن نَقرأ كلَّ ما يُقال ونحن واثقون بأنَّ يَقِينَنا في ديننا لا يتزعزع، وكما قال الأوَّلُ: «يَقِينِي في الله يَقِينِي». القرآنُ يقول لنا: لا تَطْردوا وتُطارِدُوا مؤلَّفاتِ مَنْ غاضَبُوكم، وافتحوا أبواب المعرفة تُصفِّقُها الرِّياحُ مِن هَنَّا وهَنَّا(٢)، وهذا شأنُ الأقوياء.

---

(١) البيتُ في الشِّعر والشُّعراء ١/ ٣٥١، والكامل ١/ ٣٠٤، والأوائل، ص ٣٢١.

(٢) «هَنَّا»: اسمُ إشارةٍ للمكانِ البَعيدِ، يُنظَر: أوضَحُ المَسالِكِ إلى ألفيَّة ابنِ مَالِك ١/ ١٣٧، ومنه قولُ أبي وَجْزَةَ السَّعْدِيّ: [من الوافر]

أَتَاكَ الْمَجْدُ مِنْ هَنَّا وَهَنَّا وَأَنْتَ لَهُ بِمُجْتَمَعِ السُّيُولِ

ديوان المعاني ١/ ١٠٠، وهو في دلائل الإعجاز، ص ٥٠٣، وروايتُه: «وَكُنْتَ لَهُ».

شـيءٌ آخـرُ في شِـعرِ الحَسَـنِ بـن هانـئٍ لا يَبْعُـدُ أنْ يكـونَ خَطَـرَ لأبـي العبَّاس، وهـو أنَّ شِـعرَ الحَسَـنِ يَظهـرُ فيه الفَرقُ الواضِـحُ بيـن الشِّـعرِ القديـم وشِـعرِ المُحْدَثِيـن، وأنَّـك بعـد تَحليلِـه سـتجِدُ المنطقـةَ التـي تسـرَّبَ إليهـا التَّغييرُ والتَّطويـر، وتَسـلَّلَتْ إليهـا حَداثـةُ الشِّـعر، مع أن هـذه المنطقـةَ مُحصَّنةٌ بحُصُـونٍ قويَّـةٍ ثابتـةٍ راسـخةٍ لا تَهـاوُنَ في شـيءٍ منهـا ألبتـةَ، وهـي: الإعـرابُ الثَّابِـت، ودلالـةُ الكلمـاتِ الثابتـةُ، وطرائـقُ الإبانـة التـي هـي الطاقـةُ التعبيريَّـةُ لِلُّغـةِ مِـن تعريـفٍ وتنكيـر، وحَـذْفٍ وذِكْـر.. إلـى آخـره. الحَسَـن شِـعرُه مُلتـزِمٌ بـكل هـذه الثَّوابـت، ثـمَّ ظهـرتْ فيـه الحَداثـةُ التـي هـي «أَشْـكَلُ بالدَّهْـر»، كمـا قـال أبـو العبَّـاس.

أكتفـي هنـا بمـا اختـاره أبـو العبَّـاس مِـن شِـعرِ الحَسَـنِ في وَصْـفِ السَّـفينة، وذلـك قولُـه: [مـن الكامـل]

بُنِيَـتْ عَلَـى قَـدَرٍ وَلَاءَمَ بَيْنَهَـا ... طَبَقَـانِ مِـنْ قِيـرٍ وَمِـنْ أَلْـوَاحِ
فَكَأَنَّهَـا وَالْمَـاءُ يَنْطَـحُ صَدْرَهَـا ... وَالْخَيْزُرَانَـةُ فِـي يَـدِ الْمَـلَّاحِ
جَـوْنٌ مِـنَ الْعِقْبَـانِ يَبْتَـدِرُ الدُّجَـى ... يَهْوِي بِصَوْتٍ وَاصْطِفَاقِ جَنَاحِ[1]

تحليلـي السَّـريعُ لِمِثْـلِ هـذا الشِّـعرِ هـو محاولـةٌ لبيـانِ الحُسْـنِ الـذي جعـل أبـا العبَّـاس يختـارُه.. والبيـتُ الأوَّلُ في هـذه الأبيـاتِ الثَّلاثـةِ ليـس فيـه صَنْعَـة، ولـم يَشَـأِ الشَّـاعرُ أن يَجعـلَ فيـه صَنعـةً؛ لأنـه وَصْـفٌ لصناعـةِ السَّـفينةِ وهـي علـى البَـرِّ، وهـذا ليـس الـذي قَصَـدَ إليـه الشَّـاعر، وإنَّمـا قَصَـدَ إلـى وَصْفِهـا وهـي في اليَـمِّ والمـاءُ يَنْطَـحُ صَدرَهـا.

(١) الكامل ٣/ ١٠٦.

وكلمةُ «بُنِيَتْ عَلَى قَدَرٍ» تَعنِي أنها بُنِيَتْ على تَقْدِير. والقِيرُ، بكَسْر القاف، هو القَارُ، وهو طِلاءٌ أسودُ تُطْلَى به السُّفنُ حتَّى لا يَدخُلَها الماء، وتُطْلَى به الإبلُ الجَرْبَى أيضًا[1]، والسَّفينةُ ليستْ قَارًا وألواحًا؛ لأن القَارَ لا يُمْسِكُ الألواحَ بعضَها ببعض، وإنَّما هي ألواحٌ ودُسُرٌ، كما جاء وَصْفُها في سورة «القمر»، وقد جاء هذا الوَصفُ المُجمَلُ للسَّفينة في سورة «القمر» عَقِبَ آيةٍ ليس في القرآن أوسعُ منها في بيان الطُّوفان، وهي قولُه تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١ – ١٢]، ثم جاء: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣] في وَسَطِ هذا الطُّوفان. وكيف تَحمِلُ الألواحُ والدُّسُرُ الآباءَ الأُوَلَ لكلِّ مَنْ على الأرض؛ مِن إنسان، وحيوان، وطير.. إلى آخره؟! كيف يُحمَلُ كلُّ هذا على ألواحٍ ودُسُر؟! الجوابُ في قولِه: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وما دامتْ تجرِي بعَينِ الله فلا أمانَ لها أكرمَ وأبرَّ وأفضلَ مِن عَينِ الله.

الحَسَن لم يكنْ مَنْزَعُه أن يُحدِّثَ عن قوَّة السَّفينةِ أو ضَعْفِها، وإنَّما مَنْزَعُه في أن يراها في اليَمِّ والماءُ يَنطَحُ صَدرَها، ورَاجِعْ هذا البيتَ:

فَكَأَنَّهَا وَالْمَاءُ يَنْطَحُ صَدْرَهَا ... وَالْخَيْزُرَانَةُ فِي يَدِ الْمَلَّاحِ

تَجِدِ الجُملتَيْن الحاليَّتَيْن تَعترضان بين اسم «كأنَّ» وخبرها، ثم تَجِد أن المعنى كلَّه مَعقودٌ في هاتين الجملتَيْن؛ لأن البيتَ الثَّالثَ مُشبَّهٌ به، يعني هو بيانٌ لهذا المعنى، وتصويرٌ له، ونَقْلٌ له من صُورة السَّفينة والحَالُ أنَّ الماءَ يَنطَحُ صَدرَها، والحَالُ أيضًا أنَّ الخَيْزُرَانةَ في يَدِ المَلَّاح – إلى صُورةِ الجُونِ الذي ذَكَر الشَّاعرُ حالَه في البيت الثالث.

---

(١) انظر التعليق ص ١٠٠.

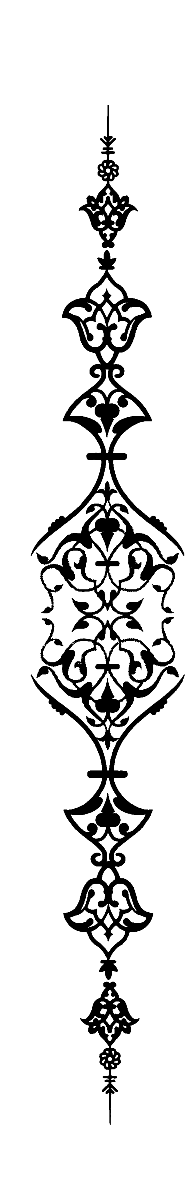
ثم تُلاحِظُ أنَّ حَذْوَ الكلام يُذكِّرك بحَذْوِ كلام النَّابغة: «فكَيْفَ بِحِصْنٍ وَالجِبَالُ جُنُوحُ، وَلَمْ تَلْفِظِ المَوْتَى القُبُور»، ونَسْقِ كلِّ مَعانِيه في جُمل حاليَّة، ثم إنَّه هنا زاد شيئًا وهو تقديمُ هاتين الجملتَيْن، وإقحامُهما بين اسم «كأنَّ» وخبرها، وكان يمكنُ أن يقولَ: «كأنَّها جُونٌ صِفَتُه كذا، والمَاءُ يَنْطَحُ صَدْرَهَا»، وإنَّما قدَّم للإشعار بمزيدٍ من العنايةِ بما قدَّمَه؛ لأن كلمةَ «يَنْطَحُ» تَعنِي غضبًا عارمًا من المَوْج، وكأنَّه صَار حيًّا حاقدًا عليها يُريدُ هلاكَها، وكأنَّ الملَّاحَ استشعر هذا الخطرَ من ناحية المَوج فقام يُمْسِكُ بالخَيْزُرانَةِ القويَّةِ اللَّيِّنَةِ، التي تتعلَّقُ بها قِلاعُ السَّفينة؛ ليَضْبطَ الملَّاحُ اتِّجاهَ السَّفينة؛ لأن الرِّيحَ تُوشِكُ أن تذهبَ بها إلى حيث تشاء الرِّيح، وليس إلى حيث يشاء الملَّاح.

وكلمةُ «الجُون» تَعنِي الأبيضَ والأسود، والمُرادُ هنا: الأبيض؛ لأن السُّفُنَ ليستْ سوداء.

وكلمةُ «يَبْتَدِرُ الدُّجَى» كلمةٌ جيِّدة؛ لأنه قابل بها قولَه في المُشبَّه «يَنْطَحُ صَدْرَهَا»؛ فقابلَ هذا الفعلَ النَّشِطَ المُتجدِّدَ الغَضُوبَ الذي تراه في كلمة «يَنْطَحُ» بالابْتِدَارِ الذي هو العملُ الدَّؤوبُ النَّشِطُ بِدَارًا أنْ يَلْحَقَه اللَّيل.

وكلمةُ «يَهْوِي بِصَوْتٍ وَاصْطِفَاقِ جَنَاح» تَمَّ به التَّشبيه، أمَّا الصَّوتُ فهو صَخَبُ المَوج وهو يَنْطَحُ صَدْرَها، وأمَّا اصطفاقُ الجَنَاح فهو خَفْقُ الرِّيحِ لِقلاعِها، ومُحاولَةُ الملَّاح ضَبْطَ هذه القِلاع.

.. هذا والله أعلمُ.



المصادر والمراجع

١- إحياء علوم الدِّين، أبو حامد الغزالي، دار المنهاج، ط: ٢، ١٤٣٤هـ= ٢٠١٣م.

٢- أخبار النَّحْويِّين البصريِّين، أبو سعيد السيرافي، ت: طه الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، د. ت.

٣- أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، مطبعة المدني، ط: ١، ١٤١٢هـ= ١٩٩١م.

٤- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، ط: ٩، ١٣٩٣هـ= ١٩٧٣م.

٥- إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيِّب الباقلاني، ت: السيد صقر، دار المعارف، ط: ٥، ١٩٩٧م.

٦- الأعلام: قاموس تراجِم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزِّرِكْلِي، دار العلم للملايين، ط: ١٥، ٢٠٠٢م.

٧- الأنوار ومحاسن الأشعار، أبو الحسن علي بن محمد العدوي، المعروف بـ«الشِّمْشَاطيِّ»، ت: السيد محمد يوسف، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٩٩هـ = ١٩٨٧م.

٨- الأوائل، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سَهْل العسكري، ت: محمد السيد الوكيل، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، ط: ١، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.

٩- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية- بيروت، د. ط، د. ت.

١٠- البيان والتَّبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط: ٧، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

١١- تلخيص المفتاح، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط: ١، ١٩٠٤م.

١٢- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، أبوالفرج المُعافَيا ابن زكريا النهرواني الجريري، ت: إحسان عبَّاس، عالم الكتب - بيروت، ط: ١، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

١٣- جمهرة الأمثال، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سَهْل العسكري، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر، ط: ٢، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

١٤- جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزْدِي، ت: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، ط: ١، ١٩٨٧م.

١٥- حاشية الشِّهاب، المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين الخفاجي، دار صادر، د. ط، د. ت.

١٦- حماسة الخالِدِيَّيْن: الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، الخالديان أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابْنَا هاشم، ت: السيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

١٧- الخصائص، أبوالفتح عثمان بن جني، ت: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ط: ٢، ١٣٧١هـ = ١٩٥٢م.

١٨- الدُّرُّ المَصُون في علوم الكتاب المكنون، السَّمين الحلبي، ت: أحمد الخرَّاط، دار القلم - دمشق، د. ط، د. ت.

١٩- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، قرأه وعلَّق عليه: محمود شاكر، مطبعة المدني، ط: ٣، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

٢٠- ديوان أبي العتاهِيَة، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

٢١- ديوان الشَّمَّاخ بن ضِرار الذُّبياني، ت: صلاح الدين الهادي، دار المعارف، د. ط، د. ت.

٢٢- ديوان المعاني، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سَهْل العسكري، ت: النبوي شعلان، مؤسسة العلياء للنشر والتوزيع، ط: ١، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

٢٣- ديوان النَّابغة الذُّبياني، جمع وتحقيق وشرح الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، د. ط، د. ت.

٢٤- ديوان امرئ القيس، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط: ٣، ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م.

٢٥- ديوان دُريد بن الصِّمَّة، ت: عمر عبد الرسول، دار المعارف، د. ط، د. ت.

٢٦- ديوان زهير بن أبي سُلْمى بشرح ثعلب، صنعة الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، مركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق المصرية، ط: ٣، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م.

٢٧- ديوان صَفِيِّ الدين الحِلِّي، دار صادر، د. ط، د. ت.

٢٨- رسالة الغفران، أبو العلاء المعري، ت: عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، ط: ٨، د. ت.

٢٩- سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني، ت: مجموعة من الأساتذة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط: ١، ١٣٧٤هـ = ١٩٥٤م.

٣٠- شرح ديوان امرئ القيس، الأعلم الشَّنْتَمَرِيّ، ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.

٣١- شرح مفتاح العلوم، سعد الدين مسعود بن عمر التَّفْتَازَانِيّ، تحقيق: عجَّاج بُرْغُش، دار التقوى (دمشق الشام)، الطبعة الأولى، ١٤٤٣هـ = ٢٠٢٢م.

٣٢- شعر الخوارج، جمع وتقديم: إحسان عباس، دار الثقافة - بيروت، ط: ٢، ١٩٧٤م.

٣٣- الشِّعر والشُّعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ت: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، ط: ٢، د. ت.

٣٤- الصِّحَاح: تاج اللغة وصِحَاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد الجوهري، ت: أحمد عطَّار، دار العلم للملايين، ط: ٢، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

٣٥- صحيح البُخارِي، محمد بن إسماعيل البخاري، ت: محمد زهير ابن ناصر، دار طوق النجاة، ط: ١، ١٤٢٢هـ

٣٦- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجَّاج، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، ط: ١، ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.

٣٧- طبقات فُحول الشُّعراء، محمَّد بن سلَّام الجُمَحِي، ت: محمود شاكر، دار المدني - جدَّة.

٣٨- العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونَقْده، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل - بيروت، ط: ٥، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

٣٩- العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، ت: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط، د.ت.

٤٠- غريب الحديث، أبو سليمان حَمد بن محمد الخَطَّابي البُسْتِي، ت: عبد الكريم العزباوي، معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى، ط: ٢، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

٤١- الكامل في التاريخ، عز الدين ابن الأثير، ت: عمر تَدْمُري، دار الكتاب العربي - بيروت، ٢٠١٢م.

٤٢-الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس محمد بن يزيد المُبرِّد، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط: ٣، ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.

٤٣- الكامل، أبو العباس محمد بن يزيد المُبرِّد، تحقيق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م.

٤٤- اللُّباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي، ت: مجموعة من المحققين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: ١، ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.

٤٥- لسان العرب، جمال الدين ابن منظور الإفريقي، دار المعارف، د.ط، د.ت.

٤٦- المحكم والمحيط الأعظم، علي بن إسماعيل بن سِيدَه، ت: مجموعة من المحققين، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ط: ١، ١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م.

٤٧- مدخل إلى كتابَيْ عبد القاهر الجرجاني، محمد محمد أبو موسى، ص ١٠٦، مكتبة وهبة، ط: ٢، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م.

٤٨- مسند الإمام أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل الشَّيْبانِي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة.

٤٩- مُعجَم البلدان، ياقوت الحَمَويُّ، دار صادر- بيروت، ١٣٩٧هـ= ١٩٧٧م.

٥٠- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السَّكَّاكي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط: ١، ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م.

٥١- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، د. ط، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

٥٢- المُقْتَضَب، أبو العباس محمد بن يزيد المُبرِّد، ت: محمد عبد الخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة، ط: ٣، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

٥٣- مُقدِّمةُ ابن خَلْدُون، عبد الرحمن بن خلدون، ت: خليل شحادة، دار الفكر، ط: ١، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

٥٤- من التُّراث النَّقديِّ: دراسةٌ وتحليلٌ، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط: ١، ١٤٤١هـ = ٢٠٢٠م.

٥٥- الموازنة بين شِعْر أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الحسن بن بِشْر الآمدي، ت: السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط: ٤، د.ت.

٥٦- النَّبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، دار الثقافة - الدوحة، ط: ١، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

٥٧- النُّجوم الزَّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تَغْري بَرْدي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: ١، ١٤١٣هـ =١٩٩٢م.

٥٨- النُّكَت في إعجاز القرآن [ضمن كتاب «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن»]، أبو سليمان حَمد بن محمد الخَطَّابي البُسْتِي، ت: محمد خلف الله ومحمد سلام، دار المعارف، ط: ١٠، ٢٠١٩م.

٥٩- الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، حسين بن أحمد المرصفي، عُني به: محمد الأهدل، طبعة خاصة للأزهر الشريف، سقيفة الصفا العلمية بماليزيا، ط: ١، ١٤٤٠هـ = ٢٠١٩م.



فهرس المحتويات


Amiria
المطابع الأميرية